اقرأ

مصطفى الشهابي

طرائف من التاريخ

دار المعارف بمصر

طرائف من التاريخ

مصطفى الشهابى

طرائف من التاريخ

اقرأ ٩٤
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٩٤ — سبتمبر سنة ١٩٥٠

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

طابع بريد يثير حربا

المعروف أن طوابع البريد ما هى إلا سند حكومى بتسلم أجرة نقل البريد مقدماً ، غير أنها تستعمل أحياناً للدعاية بأنواعها المختلفة بين الدول ؛ ولكن بعضها يتغالى فى استغلالها لهذا الغرض . ومن ذلك ما فعلته حكومة باراجواى عندما أصدرت عام ١٩٢٤ طابعاً خاصًّا يحمل خريطة لبلادها ، غير أنها أدخلت ضمن حدودها إقليم جران شاكو «Gran Chaco» الذى يقع على نهر بلكمايو « Pilcomayo » على حدود بوليڤيا ، وتبلغ مساحته نحو ٩١,٠٠٠ ميل مربع ، وهو إقليم ملىء بالغابات الكثيفة بالأشجار والمحاصيل الكثيرة ، وقد دفعتها إلى ذلك رغبتها فى أن تعلن للعالم أجمع أنه ضمن أراضيها . فقد كان بين الدولتين خلاف منذ عام ١٨٧٠ حول ملكيته ، وبرغم تحكيم المستر هاريسون رئيس الولايات المتحدة عام ١٨٨٩ ، وحكمه بضمه إلى باراجواى وإقامة مدينة فيلا هاريسون « Villa Harrison » تذكاراً لهذه المناسبة السعيدة ، إلا أن بوليڤيا تاقت إلى ضمه . فلما شعرت

بذلك باراجواى أصدرت طابع البريد ليكون مسجلا ومعلناً لحقها .

أثار ذلك حفيظة جارتها بوليفيا ، واعتبرت تصرف باراجواى تحدياً ظاهراً وصفعة أليمة فأجابت على ذلك بإصدار طابع مماثل عليه خريطة بوليفيا ، وقد ضمت بين حدودها إقليم جران شاكو ، وقد ذكر باسم شاكو البوليفانى « Chaco Boliviano » .

فأجابت باراجواى بإصدار طوابع ميزت فيها لون إقليم جران شاكو بلون داكن ، أحدها كان بمناسبة مرور خمسين عاماً على تحكيم الرئيس هاريسون ، وآخر كتب عليه بالإسبانية (لغة البلاد) « إقليم جران شاكو كان دائماً ولا يزال تابعاً لباراجواى » .

وفى الوقت نفسه قامت المناوشات على الحدود ، وبدت الحرب على الأبواب ، فقطعت العلاقات الدبلوماسية ، ولجأت باراجواى إلى عصبة الأمم ، ولكن مؤتمر الدول الأمريكية تدخل فى الأمر ، وعرض على الدولتين مشروع اتفاق رفض من المتنازعين ، وبدأت مفاوضات مباشرة ، بين الحكومتين . ولكن الاعتداءات الحربية لم تقف . وأخيراً اتفق الطرفان مؤقتاً فى عام ١٩٣٠ أن يوقفا الحرب عند ما طلبت إليهما

عصبة الأمم ومؤتمر الدول الأمريكية ذلك ، وعادت الحال إلى ما كانت عليه ، غير أن العداء عاد من جديد وتمكنت باراجواى من إثبات حقها فى الجران شاكو بالقوة ، ولكنها فشلت فى احتلال أية بقعة من أراضى بوليڤيا ، فلجأت عصبة الأمم إلى حظر تصدير الأسلحة إلى باراجواى فى حين أباحته لبوليڤيا ، فانسحبت الأولى من العصبة .



طابع بريد الأرجنتين　　طابع بريد باراجواى　　طابع بريد بوليفيا

وأخيراً تهادنت الدولتان هدنة تمت فى أثنائها تسوية هذه المشكلة بفضل تدخل أمريكا ، وذلك بمنح باراجواى أكبر جزء من الجران شاكو مقابل التصريح لبوليڤيا بالملاحة فى نهر باراجواى حتى المحيط دون إقامة أى عائق ، وكان

ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ .

وما كادت أزمة تلك الطوابع تسوى حتى قامت أزمة أخرى بسبب طابع بريد أصدرته الأرجنتين فى عام ١٩٣٦ ، وعليه خريطة فيها جزائر فلكلند وجزء من شيلى باعتبار أنها أراضى أرجنتينية ، غير أن الاحتجاج الدبلوماسى الذى تقدمت به شيلى وإنجلترا (باعتبار جزائر فلكلند من أملاكها) أسفر عن احترام الأرجنتين للحدود المقررة .

ومن الطريف أن أغلب دول أمريكا الجنوبية وقتئذ أصيبت بحمى إصدار الطوابع المبينة لخرائطها ، ولكنها كانت كلها — فيما عدا ما ذكرنا — مطابقة للحدود المصطلح عليها ، فلم تنجم عن إصدارها أية مشاكل أو أزمات .

* * *

وزير يأكل ابنه

قامت فى جنوب بحر قزوين فى القرن التاسع والثامن والسابع والسادس قبل الميلاد ، دولة الميديين « Media » ، حكمها فى أواخر عهدها الملك أستياجس « Astyages » (من ٥٩٣ — ٥٥٠) ، وكانت تضم بين حدودها جزءاً كبيراً

من بلاد الفرس الحالية .

ورأى هذا الملك ذات ليلة أن فى حديقته شجرة زرعها بيده تمتد وتنمو حتى ظللت أغصانها أكثر أنحاء مملكته وما يجاورها . وعندما فسرت له تلك الرؤيا علم أن ابنته مندان ، زوجة قمبيز « Cambyses »(١) أمير فارس ، تلد غلاماً ينتزع الملك من جده أستياجس عندما يتولى مكان أبيه قمبيز ، فأجمع الملك أمره على الحيلولة دون وقوع مثل ذلك الأمر ، فاستقدم ابنته لتضع مولودها فى رعايته . وما كاد يتحقق من أن حفيده غلام حتى احتال على اختطافه ليلا ، ثم سلمه إلى وزيره أرباغوس موصياً إياه بقتله ليطمئن على مستقبله ، ولكن الوزير لم يشأ أن يرتكب تلك الجريمة بنفسه ، فسلم المولود إلى أحد الرعاة وأوصاه أن يرمى به فى الصحراء ويأتيه بما يدل على موته . وكانت للراعى زوجة حامل ، فلما أدلى إليها زوجها بما عهد إليه أبت عليه تنفيذه .

واتفق أن وضعت تلك الزوجة الرءوم ليلتئذ طفلا ميتاً ، فابتهجت بإبقائها على حياة الأمير الصغير ، وأعطت زوجها مولودها الميت ليلقيه فى الصحراء ، فقطع الراعى أذن طفله وحملها إلى الوزير برهاناً على قتل الطفل .

---

(١) قمبيز هذا هو جد قمبيز الذى أغار على مصر سنة ٥٢٥ ق . م .

وأخذت زوجة الراعى تربى الأمير حتى شب ، فظهرت عليه دلائل النجابة وعلامات الإمارة ، ولذا اختاره زملاؤه أبناء القرية رئيساً عليهم يطيعونه مختارين . وكان شديد البأس على أقرانه لا يتوانى عن جلد من يخالف أمره . وتحدث الناس بأمر هذا الفتى حتى وصل نبأه إلى الملك إثر شكوى أحد الأشراف لاعتداء فظيع وقع على ابنه . فاستدعى الملك هذا الزعيم الصغير ، ولشد ما أدهشته فصاحته وجرأته .

ولحظ الملك شدة الشبه بين هذا الفتى وبين ابنته ، فاستدعى الراعى إليه وسأله عن هذا الفتى ، فادعى أبوته له ، ولكن الملك ارتاب فى الأمر ، ولا سيما أن سن حفيده — لو بقى حيًّا — لكانت مماثلة لسن هذا الفتى . فشدد عليه السؤال وتهدده بالعذاب ، فاعترف الراعى بكل ما حدث ، فعفا عنه ؛ ثم طلب وزيره وسأله أن يصارحه بما فعله بالوليد الذى دفع به إليه ليقتله منذ عدة أعوام ، وصارحه بشكوكه ، فأدلى إليه الوزير بما حدث وطلب منه الصفح .

واستسلم الملك للقدر ، ولكنه فكر فى الانتقام من وزيره ، فأظهر علامات الارتياح ، واقترح أن يرسل الوزير ابنه إلى قصر الملك ليتربى مع حفيد الملك ، كما دعاه إلى تناول العشاء معه ليلتئذ .



الملك أستياجس يستجوب كورش حفيده معتقداً أنه ابن الراعى

وخدع أرباغوس بقول الملك ، فبعث بولده ووحيده إلى البلاط الملكى ، فلما علم الملك بقدومه أمر بذبحه وتقطيعه وطبخ لحمه ألواناً مختلفة من الطعام تقدم وقت العشاء لأرباغوس ، وأن يحتفظ بالرأس والقدمين فى سلة حتى يطلبها .

وعندما حان وقت العشاء قدم الخدم إلى أرباغوس ما طهى من لحم ابنه ، وقدمت للملك وللمدعويين أطعمة أخرى . ولما انتهى العشاء داعبه الملك مستسفراً عن رأيه فى

طعام تلك الوليمة ، فأجاب الوزير بأنه ما تناول فى حياته ألذ وأشهى مما قدم إليه . عندئذ أمر الملك بإحضار السلة ووضعها أمام أرباغوس . فلما جىء بها أمره الملك برفع غطائها ، فلما رفعه ورأى بها بقايا ابنه اقشعر جسمه وتقززت نفسه وتحطم قلبه وكاد يفقد رشده لولا بقية من التجلد أظهرها خشية على نفسه ، ولم يجد ما يتملق به ملكه سوى قوله : كل ما يصنعه مولاى مقبول .

وعاد الوزير إلى بيته حزيناً كئيباً ، يحمل بقايا ابنه ، ثم قام بدفنها وأخذ يتصل بكورش (الحفيد) — وقد تولى الحكم بعد قليل — ويهيئ له من الأسباب ما مكنه من التغلب على الميديين وأسر جده أستياجس وظل الوزير أرباغوس فى بلاط الحفيد حتى توفى .

* * *

ملك إنجلترا لا يعرف الإنجليزية

تولت حكم إنجلترا فى أوائل القرن الثامن عشر الملكة آن ، وهى ابنة الملك جيمس الثانى وزوجة الأمير جورج الدانيماركى . وفى خلال حياتها الزوجية أنجبت سبعة عشر

طفلا ماتوا جميعاً فى سن الطفولة عدا واحداً يدعى وليم دوق جلوستر مات فى الحادية عشرة ؛ وقد دفنت تلك الملكة وزوجها وأبناؤها جميعاً فى قبر واحد فى كنيسة وستمنستر . ولعل أبلغ وصف لحياة الملكة البائسة أنها كانت حلقة متصلة من الحمل والولادة والدفن .

ولم يكن للعرش الإنجليزى وارث عند وفاتها سنة ١٧١٤ سوى الأمير جورج الألمانى ابن الملكة صوفيا حفيدة جيمس الأول ملك إنجلترا ، وكان يومئذ حاكماً على هانوفر بألمانيا ، ولذا دعى لارتقائه باسم جورج الأول ، وبذا انتقل العرش إلى بيت هانوفر « Hanover » الألمانى وظل فيه حتى اليوم (١) .

ونظراً لجهل هذا الملك اللغة الإنجليزية كان يحاول التكلم مع الوزراء باللاتينية التى لم يكن يحسنها ، يضاف إلى ذلك افتقاره إلى الشىء الكثير من الحزم والمقدرة . وقد كانت تلك العيوب ذات أثر مهم فى تاريخ إنجلترا ، فقد استقل هؤلاء الوزراء بالأمر وكونوا منهم مجلس وزراء « كابينت » ، ولعدم فهم جورج مناقشاتهم كان لا يحضر جلساتهم ،

(١) غير اسم هانوفر إلى وندسور «Windsor» فى عام ١٩١٧ خلال الحرب العظمى الأولى مراعاة للشعور العدائى نحو ألمانيا .

وأصبح هذا تقليداً لمن تولى بعده من الملوك ؛ وبالتدريج انتقلت السلطة للوزراء وأصبحوا الهيئة القابضة على السلطة الفعلية ما داموا حائزين لتأييد البرلمان ، وانتقلت أغلب سلطات التاج إلى البرلمان فازدادت مكانته وأصبحت له الصدارة السياسية فى جميع أمور الدولة .

ومن تلك الظروف كلها نشأ نظام مجلس الوزراء « The Cabinet » كأداة للحكم فى إنجلترا ، وصارت الهيئة التنفيذية مسئولة فى النهاية أمام البرلمان ؛ والفضل فى تثبيت هذا النظام يرجع إلى السير روبرت والبول « Robert Walpole » الذى تولى منصب رئيس مجلس الوزراء من سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٧٤٢ ، فتمكن فى خلال هذه السنوات من وضع أسس هذا النظام وإعطاء الوزارة المركز الخطير الذى تشغله الآن .



السير روبرت والبول

* * *

إمبراطور يقف حافياً بباب البابا ثلاثة أيام

فى سنة ١٠٧٣ تولى هلدبراند[١] منصب البابوية باسم جريجورى السابع ، وكان ضئيل الجسم إلا أنه كان ذا شخصية قوية جذبت إليه الرهبان والأساقفة والأشراف وسائر رعاياه . وقد هاله ما رآه من نفوذ الإمبراطور على القسس وأثر ذلك فى انحرافهم عن الدين وانغماسهم فى الملاذ الدنيوية ، فصمم أن يكون أكبر رأس فى العالم المسيحى ، فأعلن أن الحبر الأعظم لا يدانيه أحد ، وأنه وحده الذى يستطيع تعيين الأساقفة وإقالتهم ، وأن أحداً لا يستطيع محاكمته ، وأن الكنيسة الرومانية لا تخضع لسلطان غير سلطان البابا ، وأنه يستطيع عزل الأباطرة . وسخر بالنظرية القائلة بأن الإمبراطور ظل الله فى أرضه ، كما أعلن أن الإمبراطورية تعتمد على البطش والقوة ، فى حين أن الكنيسة تعتمد على الفضيلة ، وأنها معصومة من الخطأ ، وأن على رجال الدين أن يحلفوا يمين الولاء له دون سواه .

(١) ولد فى توسكانى ، وتخرج فى دير كلونى ، واشتغل سكرتيراً للبابا السابق ، وكان خطيباً مصقعاً يميل للاصلاح .

وقد بادر بإرسال نوابه إلى مختلف الدول ليقوموا بمهمة السفارة عنه لديها ، كما طلب إلى الملوك جميعاً إرسال العشور إليه ، وذكرهم بأن أراضيهم قاصيها ودانيها تابعة له . وفى الوقت نفسه حرم على جميع رجال الدين قبول مناصبهم إذا صدر تعيينهم عن غير طريقه ، كما حظر عليهم الزواج ، ومنع المتاجرة بالوظائف الدينية ، وهددهم بالحرمان إذا ماخالفوا أمره .

وقد أدت تلك الإجراءات إلى نشوب نزاع بينه وبين الإمبراطور هنرى الرابع(١) ، الذى كان إمبراطوراً حاذقاً أراد أن يظل تعيين الأساقفة فى ألمانيا فى دائرة سلطانه ، وأن تكون طاعتهم للإمبراطور أولا ، ثم للبابا ثانياً ، وهذا ما لم يرض به هلدبراند ، فأعلن هذا فى سنة ١٠٧٥ أن أى إمبراطور أو ملك أو دوق أو مركيز أو كونت أو أى إنسان يدعى حق تولية رجال الدين فعقابه الحرمان (٢)

---

(١) إمبراطور ألمانيا ، وقد تولى سنة ١٠٥٦ وعمره يومئذ ست سنوات .

(٢) الحرمان — وهو الإخراج من عضويه الكنيسة — كان أعظم سلاح لدى البابا ، فإذا ما شهره على ملك هجره رعاياه وشقوا عليه عصا الطاعة ، وحرم عليه دخول الكنيسة ، وامتنعت الكنيسة عن السماح بإجراء الشعائر الدينية عند وفاته إذا لم يرفع الحرمان ؛ وإذا صدر الحرمان على شعب أغلقت كنائسه ووقفت حركة الزواج والدفن ومرادفه فى الإنجليزية Excommunication

بهذا أعلن البابا عزمه على أن يخضع الأساقفة لسلطانه هو لا لسلطان الإمبراطور والأمراء الذين كان الإمبراطور يعتمد عليهم فى إدارة الإمبراطورية . ولكنه لقى مقاومة شديدة من قبل الأشراف والأساقفة أنفسهم ، لأن بعض القساوسة كانوا أمراء أيضاً ، فلم يوافقوا على جعل السلطة المطلقة فى تعيينهم بيد البابا .

غير أن البابا لم يأبه لهم وعاقبهم بالحرمان ، فعقد هنرى الرابع مجمع ورمس « Worms » فى سنة ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا وكتب إليه :

« من هنرى الملك ، لا بطريق الاغتصاب ولكن من قبل الله تعالى

إلى هلدبراند الذى لم يعد بابا الآن ، ولكنه أصبح راهباً مزيفاً .

اعتزل وانزل عن الكرسى الذى اغتصبته ، واترك آخر يعتلى عرش القديس بطرس ، لا يبطش بالناس تحت ستار الدين ، ولكن يعلمهم مبادئ القديس بطرس الصحيحة .

وأنا هنرى الملك بنعمة الله أقول لك : انزل ، انزل ، ولتلعن فى جميع الأجيال » .

وكان جواب البابا :

« أيها القديس بطرس رئيس الحواريين ، أعرنا أذنك الطاهرة ، واسمع من خادمك الذى رعيته منذ طفولته ، والذى حميته من الشريرين الذين يكرهونك ويكرهونه . . »
إلى أن قال : « وأنا أحل كل المسيحيين من قيود اليمين التى أقسموها لهنرى الإمبراطور ، وأمنع أى واحد أن يخدمه كملك مادام قد رفض بازدراء أن يطيع كمسيحى ، ولم يعد إلى الله بعد أن هجره ، فعليه اللعنة . . . »

ومالت إيطاليا كلها تقريباً إلى جانب البابا ، وآزرته دول خارجية ، وكان له أنصار فى ألمانيا نفسها ، ولذا اضطر هنرى عندما خذله النبلاء أتباعه أن يعمل على إرضاء البابا قبل وصوله إلى أجزبرج « Augzborg » لمساعدة أمراء ألمانيا على تعيين خلف لهنرى . فقد عقد هؤلاء مؤتمراً قرروا فيه أنه إذا لم يرفع الحرمان عن الإمبراطور بعد مرور عام خرجوا عن طاعته واختاروا آخر بدلا منه .

فعبر الألب فى شتاء عام ١٠٧٧ ؛ وكان هلدبراند مقيماً فى قلعة كانوسا[١] « Canossa » ضيفاً على ماتيلده ملكة توسكانيا . وأرسل الإمبراطور رسله ليسمح له البابا بالمثول بين يديه ليسأله الغفران ، فرفض البابا ؛ ولبث

(١) وهى قلعة تقع على المنحدرات الشمالية لجبال الأبنين .



الإمبراطور هنرى الرابع يطرق باب البابا

الإمبراطور ثلاثة أيام متعاقبة واقفاً بباب القلعة حافياً عارى الرأس مرتدياً ثوباً من الوبر . ورفض البابا ثلاث مرات مقابلته ، وأخيراً رجت ماتيلده البابا أن يأذن بلقائه ، فقبل رجاءها ؛ وعندما دخل هنرى ألقى بنفسه على أقدامه ، فأخذ البابا بيده ، وغفر له ذنبه ، وألغى الحرمان ، وأعاد إليه عرشه . وجاء فى النطق البابوى : « وبناء على إلحاحه ورجاء الحاضرين قد رفعنا عنه الحرمان وعفونا عنه . »

ولم يكن هنرى وضيعاً كما بدا ، فقد أنقذ نفسه فى ألمانيا

بهذا الخضوع ، وعاد إلى وطنه وجمع قوته ، وتحدى البابا الذى أعلن خلعه من جديد . وأعلن هنرى بدوره خلع البابا ، وأعطى أسقفاً ألمانياً لقب البابوية ، وسار بجيش كبير ، وعبر التيرول ، ودخل إيطاليا عن طريق فيرونا « Verona » ، حتى غدا على أبواب روما ، غير أن الملاريا أصابت جيشه ، فعاد إلى ألمانيا ، وعاود الكرة بعد ثلاثة أعوام سنة ١٠٨٤ ، ودخل روما وحاصر البابا فى قلعة سنت أنجلو « St. Angelo » ، فطلب البابا معونة روبرت جزكارد « Robert Guiscard » وكان دوقاً على الجزء الجنوبى لإيطاليا « Apulia » فتقدم روبرت الذى لم يرغب فى وجود إمبراطور بروما ، وأنقذ البابا . غير أنه أعمل فى روما السلب والنهب بشكل لم تعهده فى غارات البرابرة ، ولهذا كره الرومانيون البابا وانقلبوا عليه ، فغادر روما إلى ساليرنو ، حيث مات منفياً عام ١٠٨٥ .

* * *

جيش من الصبيان

عندما انتشرت فى أوربا الدعوة إلى تخليص بيت المقدس

من المسلمين قامت حملات كثيرة من أبنائها أصاب بعضها النجاح ومنى بعضها بالهزيمة . وأخلد تلك الحملات ذكراً حملة ريتشرد قلب الأسد ومقاومة صلاح الدين له ، وما أظهره البطلان من شجاعة وفروسية سطرها التاريخ لكليهما فى صحائفه الذهبية . غير أن الصلح بين صلاح الدين وقلب الأسد لم يمنع نشوب الخلاف مراراً بعد وفاتهما ، مما استدعى قيام الحرب وإرسال حملات أخرى أغربها حملة الأطفال سنة ١٢١٢ ؛ فقد دار فى خلد بعضهم يومئذ أن الفرسان وغيرهم من طوائف المحاربين لم ينالوا النصر فى تلك الحرب الدينية لأنهم ملوثون بالآثام الدنيوية .

ولما كانت بعض طوائف الغلمان فى أوربا قد عاصرت تلك الحروب فقد كانت تسليتهم هى « لعبة الحروب الصليبية » ، فكانوا يعملون صلباناً من القماش أو الورق ويضعونها على صدورهم ، كما كان يفعل آباؤهم ، ثم ينقسمون إلى معسكرين . وتطورت الفكرة فى ذهن من شبّوا عن الطوق منهم ، وخيل إليهم أنهم الفئة الوحيدة الطاهرة الخالية من الذنوب التى تضمن النصر . وانتشرت الفكرة وتحمس لها الكثيرون فى فرنسا وألمانيا . وما كاد ينتصف الصيف حتى تصدر لزعامتها غلام فرنسى يدعى ستيفن ،



جيش الصبيان يخترق إحدى المدن

وأخذ يضم صفوف أقرانه ويبث فيهم روح الحمية منادياً بأن أسلحتهم الضعيفة ستهزم أعداءهم بفضل صدق إيمانهم ، وأنهم بأجسامهم الضئيلة سينتصرون إذا ما خلصت نواياهم وصحت عزائمهم ، وأن البحر الأبيض سينشق أمامهم كما كما انشق البحر الأحمر أمام موسى !

وأخذ يجول فى البلاد يجمع حوله الصبيان الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثالثة عشرة ، حتى استطاع حشد أربعين ألف صبى ممن آمنوا بفكرته واستجابوا لدعوته . وبلغ الحماس أشده فانضمت إليه بعض الفتيات ليسهرن على خدمة ذلك الجمع الهائل ، وبارك البابا أنسنت الثالث تلك الحركة ، وأرسل أعلاماً ينشرها هؤلاء المجاهدين ويسيرون تحت لوائها ، كما أخذ بعض القسس يدعون لها وينادون بالانضمام إليها .

وبرغم معارضة آلاف الآباء ، ومحاولتهم إقامة العراقيل بالقول والفعل ، سارت تلك الآلاف وراء ستيفن ينشدون الأناشيد الحماسية الدينية ؛ وكلما أشرفوا على بلدة تساءل صغارهم : أهذه هى أورشليم؟ولكن الحقيقة المرة كانت تجابههم فتفت فى عضدهم . وأخذت تلك الأمواج المتدفقة تتدافع دون وعى ودون زاد أو مؤونة إلا ما جاد به المحسنون .



بقايا جيش الصبيان فى حالة يرثى لها

وبدأ التعب يتسرب إلى تلك الأقدام الصغيرة ، وأخذ الجوع يهاجم تلك العيدان الخضراء ، ولم تجد ما يكفيها لدى أبناء القرى والبلدان التى كانوا يمرون بها ، فعمدوا إلى اختطاف ما يقيم أودهم ، ولجأ الأهلون إلى الدفاع عن مزروعاتهم ، فكانوا يقابلونهم بالاعتداء الشنيع .

واستمرت تلك الجموع فى سيرها والجوع يفتك ببعضها ، والمرض يقعد بعضها الآخر ، والموت يقتطف كل يوم عشرات ، ويتخلف آخرون ممن امتدت إليهم أيدى ذوى

القلوب الرحيمة يؤوونهم مع أبنائهم ، أو اختطفهم ذوو النفوس الشريرة ليستخدموهم فى مزارعهم .

وعندما أشرفت البقية الباقية منهم على البحر وجدوا أمواجه الصاخبة تهدر مهددة كل من يجسر على النزول إليه . فتقدم ستيفن وضرب البحر بعصاه ثلاث مرات كى تتم المعجزة التى وعدوا بها وتفسح لهم المياه طريقاً بين ثناياها ولكن عبثاً .

وأخيراً لجأوا إلى الموانى القريبة ، وترامى النبأ إلى أصحاب السفن فهرعوا إلى مواطن تجمع هؤلاء الأبرار الأطهار ، وعرضوا عليهم أن ينقلوهم إلى الأراضى المقدسة دون أجر . ورحب الأبطال الصغار بهذا العرض الكريم ، ولكن السفن لم تحملهم إلى فلسطين بل حملتهم إلى شواطئ بعض البلاد الإفريقية حيث بيعوا رقيقاً .

* * *

يشنق بعد موته

جاهدت إنجلترا منذ عدة قرون فى سبيل تدعيم سلطة الشعب والحد من نفوذ الملوك ، وأول قانون اعترف بحرية

الفرد وقضى باستشارة البرلمان فى فرض الضرائب هو العهد الكبير « Magna Carta[(١)] » سنة ١٢١٥ ، غير أن بعض الملوك طغى على سلطان البرلمان وبدأت سلسلة من المنازعات بينهما انتهت بانتصار الأمة ، كما حدث سنة ١٣٩٩ ، إذ ثار النبلاء على الملك رتشرد الثانى بسبب عزمه على أن يكون ملكاً مطلق الحكم فى البلاد ، وقد انتهت تلك الثورة بخلعه .

ثم تلت ذلك أحداث داخلية وخارجية تقلبت فيها سلطة الملك صعوداً وهبوطاً حتى عهد شارل الأول الذى زج بنفسه فى سلسلة من المشاحنات مع البرلمان حول المسائل المالية والسياسية مما انتهى بخذلانه ، وعندئذ صمم على حكم البلاد بغير برلمان محتقراً إرادة الأمة قائلا إن حق الملوك منحة إلهية وليس لأحد من أبناء الشعب أو رجال الدين أو أعضاء البرلمان حق محاسبتهم .

وزاد موقفه حرجاً زجه بإنجلترا فى حروب تطلبت نفقات باهظة وجد معارضة كبيرة فى جمعها ، فعمد إلى دعوة البرلمان ، ولكن الرغبة فى الحد من سلطانه أفسحت مجالا للنزاع بينه

---

(١) تكتب Magna Carta لا Magna Charta كما يرد فى بعض الكتب الإنجليزية خطأً .

وبين ممثلى الأمة ، ونشب بينهما صراع عنيف تصدر لزعامته فى جانب الشعب أوليفر كرمويل ، وانتهى الأمر بانتصار الأمة ، وحوسب الملك على أعماله وانتهى الأمر بإعدامه سنة ١٦٤٩ م .

وبدأت حكومة الصالح العام « Commonwealth » ، وبرهن رئيسها كرمويل على أنه يملك من صفات الزعامة السياسية مالا يقل عما امتاز به من عبقرية عسكرية ، إذ استطاع بمعاونة بعض أعلام عصره الإنجليز أن يخرج من الفوضى نظاماً وأن يجعل اسم الجمهورية موضع الرهبة بين القاصى والدانى .

وبلغ من إعجاب الإنجليز بحامى الجمهورية كرمويل أن فكروا فى أن يولوه ملكا ، وحاول البرلمان إقناعه بقبول ذلك اللقب الجديد ، ولكنه رفض ذلك الاقتراح رفضاً قاطعاً .

ومما يدل على عزوفه عن تلك الفكرة من أول الأمر أنه لم يعمل يَوماً ما على أن يخلفه ابنه فى ذلك المنصب ، فأهمل شأنه وتركه يعيش فى مزارعه ، ثم عينه فيما بعد عضواً فى الغرفة التجارية ليخرجه من عزلته وجموده ، ثم عينه مديراً لجامعة أكسفورد وقائداً فى الجيش ، ثم رفعه إلى منصب الوزارة . وعندئذ بدأ الشعب — عندما برزت إلى الوجود


أوليفر كرمويل

فكرة تنصيب كرمويل ملكاً — ينظر إلى رتشرد كرمويل ويستقبله فى كل مكان كولى للعهد .

ولكن رفض كرمويل الأب للملكية — كما قدمنا — لم يمنع الشعب الإنجليزى من اختيار رتشرد ابنه مكانه بعد وفاته سنة ١٦٥٨ ، غير أن الفرق الكبير بين الرجلين والتباين الواضح بين الأب والابن عمل على تقصير عهد رتشرد فى الحكم ، فتخلى عنه بعد بضعة أشهر[1] ، وألف الخوف من الفوضى المتوقعة بين طوائف الشعب ، واتجه الرأى العام إلى استدعاء شارل الثانى من هولندة وتنصيبه على العرش ، وتم ذلك فى سنة ١٦٦٠ .

لما مات كرمويل فى ٣ سبتمبر سنة ١٦٥٨ أعلنت إنجلترا الحداد على ابنها الراحل ، وجارتها فى ذلك كبريات

---

(١) هرب رتشرد من إنجلترا ثم عاد إليها متخفياً حوالى سنة ١٦٨٠ ، وعاش باسم مستعار ، ومات سنة ١٧١٢ فى السادسة والثمانين من عمره .

الدول فى أوربا ثم شيعت جثمانه إلى دير وستمنستر ، مقبرة ملوك إنجلترا حتى منتصف القرن الثامن عشر ، باحتفال مهيب كلف الخزانة ١٥٠,٠٠٠ جنيه ، ولم تشهد إنجلترا مثيله .

وعندما تربع شارل الثانى على عرش إنجلترا اعتقل الجمهوريين الثوريين وأعدم كثيراً من زعمائهم وعلق رؤوسهم على الحراب فوق أبواب لندن ، وتغالى الملك فى الانتقام من خصوم أبيه ، فأمر بمحاكمة الثوار الأموات ، وآزره فى هذه الرغبة بعض المتطرفين الذين أعلنوا « أن قصاص الخونة لا يقف عند قبورهم بل يلاحقهم إلى أعماق تلك القبور . »

ونبش قبر كرمويل واثنين من قواده فى وستمنستر ونقلت جثثهم إلى تيبورن « Tyburn »[1] حيث علقت طوال يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٦٦١ — وهو يوافق مرور اثنى عشر عاماً على إعدام الملك شارل الأول — ثم فصلت جماجمهم عن أجسادهم وظلت على باب وستمنستر هول[2] على الحراب مدة ربع قرن .

وقد اختلفت المؤرخون فى مصير جثة كرمويل فبعضهم

---

(١) مكان على مقربة من هايد بارك اشتهر بكثرة من شنقوا فيه .

(٢) صالة ملحقة بمبانى البرلمان البريطانى وقد شهدت أحداثاً بارزة فى تاريخ إنجلترا منها محاكمة شارل الأول .

ينفى بتاتاً أنه دفن فى وستمنستر ، وبعضهم يزعم أنه دفن فى نازبى (حيث هزمت قوات شارل الأول) ، وبعضهم الآخر يذهب إلى أن الجثة ألقيت فى نهر التيمز « Thames » فى حين يؤكد فريق أن اللورد فوكونبرج « Fauconberg » تمكن بنفوذه من الحصول على بقايا الجثة ودفنها فى نيوبرج بيوركشير [١] .

* * *

نساء سويسرا يهزمن جيشاً نمسوياً

اشتهرت سويسرا منذ أجيال كثيرة بأنها معقل الحرية وملاذ الأحرار ، وهى لم تنل ذلك الوصف إلا بعد أن جاهدت عدة قرون استطاعت أن تظهر إبانها ضروباً من البسالة والتضحية عادت عليها بسمعة حربية دفعت الكثير من أمم أوربا إلى تقوية جيوشها بإدخال العنصر السويسرى فيها لإخلاصهم فى القتال وصبرهم على النضال . ولعل فى فناء الحرس السويسرى دفاعاً عن لويس السادس عشر ملك فرنسا أبرز مثل للإخلاص

(١) وهذا التضارب فى مصير الجثة أشبه بما يحيط بجثث الإسكندر الأكبر وشارلمان وغيرهم .

والفناء فى سبيل الواجب .

وكانت النمسا دائمة التطلع إلى استعباد سويسرا ، فكثيراً ما أغارت بجيوشها الحافلة التى كانت ترتد برغم كثرتها وهى تجر أذيال الهزيمة ، ثم تعقد صلحاً مؤقتاً لا تلبث أن تنقضه بعد أن تعد جيشاً آخر وتهيئ سبباً جديداً للغزو .

وقد حدث فى عام ١٦٢٢ أن اعتزم إمبراطور النمسا أن يقف حركة انتشار المذهب البروتستنتى فى جريسون « Grisons » (إحدى المقاطعات الشرقية فى سويسرا) فأعد جيشاً كبيراً ليغزوها . وتقدم الجيش حتى اجتاز حدود سويسرا ، ولسوء حظه بدأ باجتياز وادى براتيجو « Pratigau » ؛ وهذا الوادى ضيق جداً تحيط به الجبال والتلال العالية ذات المراعى الغنية بالأعشاب الشهيرة بماشيتها السمينة الضخمة.

وكان الرجال السويسريون فى أعلى الجبال يرعون قطعانهم ، فى حين كانت النساء فى أسفل الوادى يؤدين أعمالهن فى المنازل أو يقمن بأعمال تكميلية فى الحقول الصغيرة عند منفرجات الوادى وعلى السفوح الواطئة للتلال المجاورة .

وفيما هن كذلك إذ فوجئن بنبأ قدوم الجيش النمسوى لغزو مقاطعتهن ، ووصوله إلى مدينتى كلوسترز « Klosters » ولا ندكوارت « Landquart » على مسيرة ساعات منهن ،

فما كان منهن إلا أن بادرن إلى أسلحة أزواجهن وآلهن كالحراب والسهام والأقواس والنبال ، مستعينات أيضاً ببعض الأدوات الزراعية كالمدراة والمنجل ، وأسرعن للقاء العدو فى ممر ضيق لا بد له من اجتيازه . وهرع فريق منهن إلى الأماكن العالية المشرفة على ذلك الممر ليمطرن العدو وابلا من الحجارة .

وجاء النمسويون وهم يجهلون ما أعد لهم ، فما كادوا يصلون إلى منتصف الممر حتى انهالت عليهم الحجارة من السماء ، وبرزت النساء المقاتلات ، فاضطرب النمسويون أشد الاضطراب ودب الخلل فى صفوفهم لضيق الممر واستحالة الفرار ، فانثنوا على أعقابهم والنساء من ورائهم يحصدنهم حصداً .

وانجلت المعركة عن هزيمة النمسويين هزيمة منكرة . وعندما حل المساء عاد الرجال إلى بيوتهم ، ولشد ما اعترتهم الدهشة وملأهم العجب والإعجاب عندما علموا بما تم على أيدى نساء الوادى ، فاحتفلوا جميعاً ليلتئذ بالنصر احتفالا تردد صداه فى الأيام التالية فى أرجاء سويسرا كلها . وفى الصباح اندفع الرجال لإتمام النصر ، فأجهزوا على فلول الأعداء ، واستطاعوا فى غمرة الهزيمة التى منى بها النمسويون

أن يحتلوا قلعة كاستل « Castel » وهم مسلحون بالعصى .

ومنذ ذلك اليوم أصبح من التقاليد المتبعة فى ذلك الوادى أن تسير جموع النساء فى مقدمة الرجال عند ذهابهن إلى الكنائس ، وأن يتصدرن الاحتفالات العامة تكريماً لهن وتخليداً لبسالتهن .

* * *

الحاج على فى أمريكا

فى منتصف القرن الماضى أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تمد الطرق الحديدية فى أجزائها الغربية التى ضمت إليها وقتئذ ، ولما كانت تلك الجهات صحراوية فقد اعترضت القائمين بالتنفيذ صعوبات جمة .

وهنا تقدم الضابط إدوارد بيل « Edward Beale » مقترحاً استعمال الجمال ، واستطاع إقناع أولى الأمر فى وزارة الحربية — وكان على رأسها جفرسن دافيز أحد الرؤساء السابقين لتلك الولايات — أن الجمال هى أصلح الحيوانات لتشابه المناطق الغربية بالصحارى الأفريقية الشمالية والبلاد العربية .

وخرج الاقتراح إلى دور التنفيذ ، فأرسلت سفينة أمريكية إلى الشرق لجلب ما تستطيع من الجمال . وبعد أن طافت السفينة بالثغور الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ، ومنها الإسكندرية ، عادت إلى أمريكا وعلى ظهرها ٣٣ جملا ، ومن ذلك العدد تسعة جمال اشتريت من مصر بإذن خاص من سعيد باشا ، لتحريم إصدار الحيوانات من مصر وقتئذ ، وقد صحب تلك الجمال عدد من السائقين استؤجروا من مصر وسوريا . وفى العام التالى اشترت أمريكا ٧٧ جملا .

ولقسوة رؤساء العمل هرب كل سائقى الجمال الشرقيين ولم يبق منهم سوى الحاج على ، وهو قائد جمال سورى اشتهر فى ذلك الحين باسم : هى جولى « Hi Jolly » وهو تحريف ظاهر لكلمتى الحاج على . وكانت الجمال تسير يوميًّا نحو ٣٠ ميلا محملة بالماء والأدوات ، وكان بعضها يعلو الجبال المغطاة بالثلوج حيث يصعب على البغال السير ، كما كانت تعبر المجارى المائية بسهولة . ولكن مظهرها كان يخيف الماشية والخيل والبغال التى لم تألف رؤيتها ، فكانت تجفل منها وتلقى بأحمالها وتفر هاربة فى الصحراء ، كما كان مرور الجمال بالقرى تسبقه ضجة كبرى ويصحبه تألب

أهاليها لرؤية تلك المخلوقات العجيبة التى أصبحت مصدر رعب للصغار ، فضلا عن أن سائقيها الأمريكيين كانوا يجهلون كيف يسوقونها ، فازدادت الشكوى ، ورأت وزارة الحربية أن تقف التجربة فباعت بعض تلك الجمال ، وتُرك ما بقى دون بيع يهيم فى الصحراء حتى إذا ما قابل جمل منها قافلة حسبوه عفريتاً أو شيطاناً فجروا رعباً . كما أن بعض الجمال الضالة فى الصحارى كانت تهاجم القطر وتسبب حوادث جسيمة ولذلك بادرت الحكومة بإمساك ما بقى منها ووضعه فى حدائق الحيوانات . ونسج القوم عن الجمال قصصاً خيالية فبعضهم كان يروى أنه شاهد « الوحش ذا الرقبة الطويلة » وقد ركبه ميت عارٍ شد إليه بشريط من الجلد ، وكلما سار الجمل سقط عضو من جسم الراكب ، حتى إذا ما وصل إلى راوى القصة لم يبق عليه شىء مطلقاً .

أما الحاج على فقد اشتغل بعد الاستغناء عن استعمال الجمال دليلا للجنود الأمريكيين يرشدهم إلى مخابئ الهنود الحمر الذين كانوا يعبثون بالأمن فى تلك المناطق ، حتى توفى عام ١٩٠٢ فى كوارتزيت على نهر الكلورادو فى الجنوب الغربى من ولاية أريزونا . وقد اكتتب الأهالى ورجال الحكومة وشركات السكك الحديدية هناك سنة ١٩٣٥ فى إقامة تمثال

فوق قبره على شكل هرم صغير ارتفاعه عشرة أقدام يعلوه تمثال صغير لجمل من النحاس علوه قدمان وعلى لوحة نحاسية جانبية ذكرت عبارة تخليد وتقدير لخدمات الحاج على .

* * *

مصرية تلد فيلا

منذ أكثر من قرنين قدم إلى مصر جماعة من الهنود ومعهم فيل صغير ، وما إن وطئت أقدامهم أرض الكنانة حتى هرع الناس من كل حدب وصوب لرؤية ذلك الضيف الغريب ، واستغل الهنود غريزة حب الاستطلاع هذه فأخذوا، بعد أن استقر بهم المقام فى السويس، يفرضون على المتفرجين إتاوة . ثم قدموا إلى القاهرة مارين بمدن وقرى كثيرة كانوا فيها موضع الترحاب والإعجاب ، واستمروا فى طريقهم نحو القاهرة حتى إذا ما أصبحوا على قيد أميال منها حطوا رحالهم ليدخلوها ليلا حتى لا يتمتع القاهريون برؤية الفيل مجاناً ! وأرسلوا مندوباً من قبلهم فاتصل بأولى الأمر فى القاهرة ، وأعد الإسطبل الكبير بقصر العينى

لإيواء الفيل ، وأفردت بالقصر بضع حجرات للضيوف الكرام ، إذ كان ذلك القصر تارة دار ضيافة لمن يفد على مصر من العظماء والأمراء ، وتارة سكناً لبعض بكوات المماليك ، وذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر ، حتى صار مدرسة للطب ومستشفى فى عهد محمد على باشا .

وما كاد نبأ حضورهم وإقامتهم بقصر العينى يصل إلى الأسماع حتى بدأت وفود القاهريين تترى للفرجة ، ووقف الهنود يجمعون الدراهم من الحاضرين الذين كانوا يأتون إلى الفيل بالكعك وأصناف الحلوى فيحتجزها الهنود لطعامهم ويقدمون له منها ما يكفيه . وقد أعجب المتفرجون بما كان يأتيه من حركات تلبية للأوامر الصادرة إليه من أصحابه ، وكان الإعجاب يشتد عندما يمد خرطومه ويتناول عوداً من القصب ليمصه .

وتوافد الناس من كل فج لرؤية هذا الفيل وجاءت بين المتفرجين زوجة لرجل جمال ، وكانت حاملا فى شهرها الأول ، برغم معارضة الزوج خشية تأثر مولودها بما يعرف بالوحم . ولم يكد الهنود وفيلهم يغادرون القاهرة بعد أن غنموا من المال الشيء الكثير حتى كانت الزوجة قد أوشكت أن تضع مولودها .

وجاء اليوم الموعود وانتظر الوالد الضيف الجديد ، وإذا به يكاد يصعق لهول المفاجأة ، فقد كان فلذة كبده وحشاشة قلبه ومنتهى أمله مولوداً شاذًّا شديد الشبه بالفيل، فله مثل وجهه وأذنيه ، كما كان له نابان خارجان من فمه .

وأصبح حديث القوم أن زوجة الجمال ولدت فيلا ، وأخذ الناس يفدون إلى الوالد البائس ليعزوه فى محنته وليروا الفيل المصرى الصميم . ولم يطل بؤس الوالد فقد انتقل ذلك المولود العجيب إلى عالم الأموات بعد أيام قلائل ، فانتهت بذلك آلام الرجل . ولله فى خلقه شئون ! !

* * *

خطة حربية فى التوراة تعاد فى الحرب العظمى الأولى

عندما كان اللورد أللنبى يحارب الأتراك فى فلسطين رأى — لكى يفسح الطريق لهجوم عام — أن يجلى الأتراك عن قرية تدعى مخماس (وهى شمال بيت المقدس بقليل) وأدرك أنه سيتعرض لخسائر جمة لا مفر منها لكى يتم له ذلك . إلا أنه بعد طول تردد لم يجد بدًّا مما استقر عليه رأيه . وفى مساء اليوم السابق للهجوم اجتمع بمرؤوسيه من الضباط

ليعرض عليهم مشروع الهجوم على مخماس . وفهم الجميع الخطة التى رسمت ، وانصرفوا ومن بينهم ضابط يدعى بترى أخذ يردد تلك الكلمة محاولا أن يتذكر أين سمعها أو قرأ عنها قبل ذلك . ولما وصل إلى خيمته حاول النوم ، ولكنه لم يستطع ، فقد بدأت كلمة مخماس تطن فى أذنيه ، فظل يتقلب فترة غير يسيرة من الزمن حتى تذكر فجأة أنه قرأ عنها فى التوراة ، فأسرع إلى نسخة كان يحتفظ بها دائماً وتصفحها سريعاً ، ولحسن حظه وفق إلى العثور على الفصل الذى وردت به ، فبادر إلى خيمة القائد العام حيث أطلعه عليه .

كان الفصل خاصاً بإيضاح الوسيلة التى اتبعها يوناثان ابن الملك شاؤل سنة ١٠٩٣ قبل الميلاد للاستيلاء على مخماس من الفلسطينيين ، وفيه ذكر لمعالم كثيرة ، منها صخرتان كبيرتان تطلان على ممر سرى يؤدى إلى هضبة تنحدر نحو القرية . .

إزاء كل ذلك عجل القائد بإرسال فرقة كشافة لتتأكد من وجود المعالم المشار إليها ، ولحسن الحظ عادت الفرقة تؤكد وجودها جميعاً . . وهنا انكفأ القائد العام والضابط بترى على التوراة يدرسون الخطة كما رسمتها التوراة ، وألغيت

الخطة التى أعلنت فى بدء الليل .

وقبل بزوغ الفجر بدأ الممر السرى يمتلىء بالجند ، ولما اكتمل عددهم انحدروا نحو القرية وهم يصرخون ، فخرج الأتراك من أكواخهم ورأوا سيل الجنود ينهمر عليهم من حيث لا يعلمون فركنوا إلى الفرار . وهكذا سقطت مخماس دون خسائر تذكر فى المال والأرواح والفضل لخطة التوراة .

* * *

ملك يحكم دقيقة واحدة

عندما تولى لويس فيليب عرش فرنسا تعهد بأن يكون حكمه دستوريًّا ، غير أنه حنث بعهده وأخذ يملى إرادته على الأمة ، فعدل قانون الانتخاب تعديلا يضمن لأنصاره الأغلبية فى المجالس التشريعية ، كما أخذ يقيد الصحافة والكتابات السياسية ، فضلا عن منحه رجال الأمن سلطات استثنائية لمناهضته أنصار الحرية الدستورية . يضاف إلى ذلك كله تفشى الرشوة حتى أصبحت أصوات النواب تشترى علناً لتأييد السياسة التى يريد الملك اتباعها .

لذلك بدأ دعاة الإصلاح ينظمون خططهم ، وأخذوا يطالبون بإصلاح الدستور وإلغاء الإجراءات الشاذة التى سادت يومئذ . فلما عارضت الحكومة تلك الحركة وقاومتها بالقوة تنفيذاً لرغبة لويس انفجر بركان الثورة فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، فعجزت الحكومة عن إخمادها ، واندفع الشعب الفرنسى ينادى بإقالة لويس الذى اضطر إلى استجابة رغبة الفرنسيين ، واعتزل العرش وأقام حفيده كونت دى باريس مكانه .

ولم يكد رسوله يشرف على الجماهير الثائرة المحيطة بالقصر الملكى ، ليبلغهم اعتزال الملك وتولى حفيده كونت دى باريس ، حتى ارتفع صوت من بين المحتشدين ينادى : « تسقط الملكية ! » .

ردد الشعب النداء بحماس شديد ، وعاد الرسول إلى فيليب فوجده يعد عدته للرحيل إلى إنجلترا مستصحباً معه حفيده الذى لم يكن قد مضى على توليه عرش فرنسا أكثر من دقيقة ، بعد أن دوى فى آذانه الهتاف الجديد !

السلطان محمد الرابع
قريب البابا إسكندر السابع

بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها فى عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢٠ — ١٥٦٦) الذى اشتهر باسم سليمان القانونى ، وأصبحت تتمتع بمركز ممتاز فى أوربا ، ولم تكن فتوحه البحرية أقل شأناً من فتوحه البرية ، فقد تغلب الأسطول العثمانى على الأساطيل المعادية فى البحر الأبيض المتوسط ، وأخذ ينشر فى أرجاء ذلك البحر الهلع والرعب . وكان ضمن ما انقض عليه ذلك الأسطول قلعة أسرة مرسيلى إحدى القلاع الساحلية بإيطاليا .

وعاد الأسطول إلى ضفاف البسفور يحمل الغنائم والأسلاب والسبايا ، ومن بينها الفتاة الجميلة مرجريت مارسيلى التى ساقها القدر إلى قصر السلطان سليمان ، حيث احتلت مكاناً ممتازاً ، وقد ازدادت مكانتها رفعة عندما أنجبت للسلطان ابنه وخليفته سليم الثانى .

وكان لمرجريت شقيق يدعى ليوناردو مارسيلى بذل جهداً كبيراً فى تتبع أثرها بالآستانة ليفتديها ، فلما أسفر بحثه

عن أنها ألحقت بحريم السلطان عاد من حيث أتى .

ومضت الأيام وتزوجت حفيدة ليوناردو من أحد أفراد أسرة تشيجى ، وولدت فابيو تشيجى الذى تربع على كرسى البابوية باسم إسكندر السابع ، وكان معاصراً للسلطان محمد الرابع سليل السلطان سليم الثانى .

وجرى دم آل مرسيلى فى كل من السلطان والبابا ، وإن فرقتهما السياسة والدين !

* * *

المقشة شعار البحرية الهولندية
والكرباج شعار البحرية الإنجليزية

بدأ مجد البحرية الإنجليزية عقب انتصارها على الأسطول الإسبانى « الأرمادا » وذلك فى أواخر القرن السادس عشر ، ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام بالبحرية يقل لانشغال الإنجليز بالمسائل الداخلية التى كان فى طليعتها العمل على توطيد النظام النيابى ، والحد من نزوع ملوكها إلى الحكم المطلق ، وقيام حرب داخلية انتهت بانهزام الملك شارل الأول وإعدامه ، ثم تولى كرمويل حاكماً عاماً على البلاد ، وذلك فى منتصف

القرن السابع عشر .

تتابعت كل تلك الحوادث وغيرها فى الوقت الذى كانت هولندا تعمل فيه على تأسيس شركات للاتجار مع الشرق ، ولا سيما الهند وجزائر الهند الشرقية كجاوه وسومطره وغيرها ، فلما شعر كرمويل بالمنافس البحرى الجديد لإنجلترا أراد أن يضع حداً للنشاط الهولندى فأصدر « قانون الملاحة » الذى حرم دخول الموانئ الإنجليزية على غير السفن الإنجليزية أو سفن البلاد التى تنتج الحاصلات الواردة إلى إنجلترا ، فعاد ذلك على هولندا بالخسارة ، ولذا لم تر بداً من محاربة إنجلترا فى البحر .

واستمرت الحرب مدة عامين كان شعار البحرية الهولندية فيهما « المقشة » إشارة إلى الرغبة فى كنس الأسطول الإنجليزى من البحار ، وأجاب الإنجليز على ذلك باتخاذ « الكرباج » شعاراً يرمزون به إلى السيادة التامة والحكم المطلق على البحار . وكان الفريقان إذا تقابلا جعل كل منهما همه ، بعد تحطيم سفن عدوه ، أن يكسر شعاره ويتركه على سارية العلم . وقد ظلت تلك الحرب سجالا برغم اشتباك أساطيل الدولتين فى عدة وقائع ، إلا أن هولندا سلمت أخيراً بقانون الملاحة .

ومن ذلك الحين أصبح من التقاليد المرعية فى البحرية البريطانية أن تعلق مقشة مكسورة إلى سارية كل سفينة يراد بيعها تخليداً لذكرى الانتصار فى تلك الحرب !

* * *

قرية العقلاء المجانين

أراد الملك جون — الذى اشتهر فى تاريخ إنجلترا بمنحه شعبه « الماجنا كرتا » أو المرسوم الأعظم الذى يعتبر أساس الحياة النيابية التى يتمتع بها الإنجليز اليوم — أراد أن ينشئ فى مقاطعة نوتنجهام التى تقع فى وسط إنجلترا كشكاً للصيد تلحق به استراحة ملكية له ولأتباعه .

وعندما علم أبناء قرية جوتام « Gotham » التى تقع فى تلك المقاطعة أن ذلك الكشك سيقام على مقربة من قريتهم أعلنوا أنهم سيحولون دون إقامته بالقوة ، ولعل ذلك كان لسببين : أولهما ما يحدثه موكب الملك من تلف لمزروعاتهم فى أثناء سيره بالطرق الضيقة التى تربط قريتهم بما حولها ، وثانيهما أن أغلب تلك الطرق كانت طرقاً خاصة يملكها أبناء القرية وتجبى من السالكين فيها ضرائب مرور .

ولما كانت التقاليد فى ذلك العهد قد جرت بأن أى طريق يمر به الملك يصبح طريقاً عاماً مجانياً فقد خشى الأهالى ضياع جزء مضمون من إيرادهم .

ولم يشأ الملك أن يصطدم بأبناء تلك القرية ، لأنه كان يخشى إشعال نار حرب أهلية بتحديه شعور هؤلاء القرويين ومحاولته استعمال القوة ، ولكنه أراد أن يقف على سبب هذا التحدى ، فأرسل بعض رجاله للاستفسار عن السبب . ولما عرف القوم بقرب قدوم رسل الملك عقدوا اجتماعاً من ذوى المشورة فيهم ، وبعد بحث الموضوع أجمعوا على تجنب ما يثير حفيظة الملك عليهم ، ويجعله يضمر لهم العقاب العاجل أو الآجل ، فقرروا أن يتظاهروا جميعاً بالجنون .

ولما أشرف رسل الملك على القرية وجدوا فريقاً من أهلها حول بركة ماء يحاولون إغراق ديك لأنه لا يبيض ، فدهشوا ! ولما ساروا قليلا وجدوا فريقاً آخر كل اثنين من أفراده يجران عربة قد ركب فيها حصان سليم الجسم بادى الصحة ، فازدادت دهشتهم ! وعندما اقتربوا من القرية وجدوا فريقاً ثالثاً قد خلع أفراده ملابسهم إلا ما يستر عورتهم وعلقوها على شجرة تفاح لحمايتها من الريح !

وبينما هم كذلك إذا بموكب صغير من أهالى القرية قد ربط كل منهم فأسه أو معوله أو مجرفته بحبل وأخذ يجرها خلفه فيثير الغبار !...

ولم يكد الرسل يرون المنظر الأخير حتى بادروا بالعودة إلى الملك خشية أى يسىء القوم استعمال تلك الأدوات الزراعية . وعندما مثلوا بين يديه قصوا عليه ما شاهدوه . ولما انتهوا ضحك الملك وقال : « لا شك أن أهل تلك القرية جميعاً مجانين ! »

* * *

ملك يتوج بسوار أمه

عندما تولى الملك جون عرش إنجلترا تشاءم الإنجليز لأن ماضيه لم يدع للتفاؤل محلا ، إذ أنه عندما عين للقيام بأعباء الحكم فى إيرلندة لم تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا فى معاملة الإيرلنديين . وقد حدث ما توقعه الإنجليز ، فقد ذاقوا فى أيام حكمه الشىء الكثير من الغدر والظلم فى الداخل والهزائم فى الخارج ، حتى اتحدت جميع طبقات الأمة : الأشراف والشعب ورجال الدين ، وأرغموه على منح

العهد الأعظم « الماجنا كرتا » سنة ١٢١٥ الذى يعتبر أساس الحقوق الدستورية التى يتمتع بها الشعب الإنجليزى الآن ، وبه تقيدت سلطة الملك المطلقة وزادت حقوق الشعب .

ولم يكن جون حسن النية عند منحه هذا العهد ، لأنه حاول أن يسترد ما تنازل عنه من حقوق فقام النزاع بينه وبين الأشراف ثانية .

وبينما كان يعبر نهر الواش — أحد أنهار شرق إنجلترا — انقلب القارب الذى حمل مجوهرات الملك وثروته وتاجه وسقطت كلها فى الماء . وعندما بلغه النبأ اشتد ألمه فأراد أن ينسى ما أصابه فعمد إلى الخمر يحتسيها وإلى الطعام يلتهمه ، ولكنه أفرط فى كليهما ، فوافته منيته وراح فريسة حزنه على الثروة الضائعة وضحية شراهته .


يتوج بسوار أمه

وانتهى بذلك عهد أظلم ملوك إنجلترا . ولم يكد نبأ موته يصل إلى أسماع الأشراف حتى بادروا إلى المناداة بولده الصغير هنرى ملكاً ، وسنه لم تتجاوز التاسعة . ولما كان التاج قد فقد فى نهر الواش

كما قدمنا ، فإن القوم لشدة اغتباطهم بما صار إليه أمر الملك السابق لم ينتظروا حتى يصنع تاج للملك الجديد بل اتخذوا من سوار أمه الملكة تاجاً وضعوه على رأسه حتى تمت الطقوس الدينية والمدنية .

وتولى هنرى الثالث العرش تحت وصاية أحد الأشراف حتى بلغ سن الرشد .

* * *

يرفت لأنه لم يضرب قنصلا

فى ضحى أحد أيام الأسبوع الأخير من شهر يوليو سنة ١٨٤٢ توجه قنصل سردينيا إلى جمرك بولاق ليشرف على تسلم رسالة بضائع وردت باسم أحد رعايا سردينيا .

علم أرسلان أغا أمين الجمرك بحضوره فقابله بما يليق بأمثاله من حفاوة وإجلال . ولما علم بالمهمة التى قدم القنصل لإنجازها اعتذر له بلباقة عن عدم استطاعته تلبية رغبته فى إنقاص الرسوم المستحقة على البضائع الواردة من الخارج ما لم يكن ذلك بأمر خاص كتابى من سيد البلاد محمد على باشا .

فشمخ القنصل بأنفه واستنكف أن يخاطبه أمين الجمرك

بتلك اللهجة الجافة ، وأعاد الكرة ولكن بنغمة ظهر فيها التواضع ولين الجانب والتلويح بالمغريات المادية . ولكن أرسلان أغا أصر على موقفه الأول ولم يتزحزح عنه قيد شعرة .

عندئذ إثار القنصل ، وزاد فى هياجه الجو الخانق والحرارة التى لا تطاق فى مثل تلك الأيام ، ولم يتمكن من ضبط عواطفه ، ولعله تذكر أن محمد على باشا — وقد عاد إلى حكم مصر وسودانها نتيجة لألاعيب الدول الأوربية — أصبح يخشى بأس ممثليها فى مصر ويعمل على التلطف فى معاملتهم ... كل تلك العوامل مجتمعة دفعت بالقنصل إلى الاعتداء بالضرب على أرسلان أغا الموظف الأمين ...

وزاد الطين بلة أن الياسقجى الذى رافق القنصل استطال على الموظفين الذين حاولوا معاونة أمين الجمرك فى تأدية واجبه ، وحالوا دون استمرار القنصل فى اعتدائه .

وانصرف القنصل غاضباً لأنه لم يتمكن من أن يكيل لأرسلان أغا القدر الكافى من الضربات الذى تهدأ به ثورته ويسكن غضبه .

وعندما أقبل المساء كان حديث المصريين من أبناء القاهرة يدور حول ذلك الاعتداء المشين. وانقسم القوم إلى فريقين : فريق يرى أنه كان يجدر بأرسلان أغا أن يرد

الاعتداء بمثله وليكن ما يكون ، وفريق آخر يلتمس له العذر ويحاول تبرير موقفه إزاء ما أصابه من أجنبي كبير لهُ مركزه الرسمى . ولكن الجميع استنكروا موقف الياسقجى الذى هو مصرى أعارته الحكومة للقنصلية ، وأخذوا يتساءلون ما موقف محمد على باشا من هذا الحادث ؟

ولم يطل انتظار القوم للنتيجة ، فعندما وصل الأمر إلى مسامع عزيز مصر اهتم له . ولما ألم بالتفاصيل استفزته بشاعة الحادث وأقضت مضجعه زمناً غير يسير ، ولكنه عالجها بعزمة « محمدية » وهمة « علوية » ، فطلب من القنصل العام لسردينيا أن يخاطب ملكه شارل ألبرت (الجد الأعلى للملك فكتور عمانويل الثالث ملك إيطاليا الأسبق) لعزل ذلك القنصل وإبعاده عن مصر ، كما لفت نظره إلى أن أية مكاتبة سترد لأية جهة حكومية موقعاً عليها منه سيكون مصيرها الإهمال التام حتى ينفذ العزل والإبعاد .

أما الياسقجى فقد أمر محمد على باشا بالقبض عليه وإحضاره إلى الديوان بالقلعة وضربه ٥٠٠ نبوت« أدباً له على ما وقع منه فى جمرك بولاق ، وإفهامه أن القصد من إعطاء الياسقجية للقناصل هو لصيانتها والمحافظة عليها وليس لمساعدتهم فى فعل أفعال مغايرة كهذه . . »

بقى أرسلان أغا الذى أصابه بدوره رشاش من غضب الباشا ، فقد أمر برفته « جزاء على عدم محافظته على شرف وناموس الحكومة لقبوله الضرب وعدم مقابلة القنصل المذكور بالمثل . »

وعزل القنصل ، وضرب الياسقجى ، وفصل أرسلان أغا ، وعاد أبناء القاهرة يتحدثون معجبين بحزم محمد على باشا مشيدين بموقفه .

* * *

زواج الخليج الناصرى ببركة الرطلى !

شهدت مصر عصوراً كثرت فيها الأعياد وتعددت خلالها مواسم الأفراح العامة ، ومرت بالمصريين قرون وهم لا يفرقون بين الأعياد القومية كوفاء النيل ، والأعياد الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى ومولد النبى ، وليلة الغطاس والنوروز وخميس العهد وعيد الشهيد .

وكثيراً ما تغلبت الصبغة القومية على الأعياد الطائفية التى كان يقيمها أبناء إحدى الطائفتين ، يسهم معهم فيها ويتمتع بمباهجها أبناء الطائفة الأخرى ، بل أن بعض

سلاطين مصر وولاتها كان يشترك بنفسه فى حضور بعضها .

غير أن إسراف المصريين فى إظهار الابتهاج بتلك الأعياد، وما كان ينفق فيها من أموال وما ينتشر خلالها من لهو ولعب يخرجان أحياناً عن حدود الحياء والحشمة ، فضلا عن ارتكاب الجرائم واختلال الأمن ، كل ذلك دفع بعض الولاة إلى التقليل منها بتحريم إقامة بعضها .

ولما كان المصريون لا تعوزهم المقدرة على خلق المناسبات البهيجة ، فقد لجأوا إلى الخلجان والبرك التى كانت منثورة فى ربوع القاهرة يقيمون فيها مباهجهم فى نطاق ضيق لم يلبث أن اتسع . واخترع « أبناء الحظ » عيداً أسموه « زواج الخليج الناصرى ببركة الرطلى » .

كانت تلك البركة تقع وسط حى الطبالة (الفجالة الآن). وكان فى شرقيها زاوية فيها نحل كثير ، وفيها شخص احترف صناعة الأرطال الحديد التى يزن بها البائعون ، فسماها الناس بركة الرطلى نسبة إليه .

وكان الخليج الناصرى — الذى حفره الناصر محمد بن قلاوون (ويشغله الآن جزء كبير من شارع الملكة) يغذى تلك البركة بالمياه .

وقد اعتاد الناس الركوب فى الزوارق الصغيرة الضيقة (وكانوا يسمونها الشخاتير ، جمع شختور) والتنزه فى تلك البركة يومياً ، فإذا بدأ موسم فيضان النيل أخذوا فى إعداد حفل الزواج الذى أشرنا إليه .

وكان الحفل عادة يستهل باستئذان والى (محافظ) القاهرة فى إقامته ، ثم يختار سكان البيوت المطلة على الخليج وفداً منهم على رأسه خاطب يرتدى حلة خاصة ليقابل نقيب أعيان سكان البيوت المشرفة على البركة طالباً منه الموافقة على خطوبة الخليج الناصرى لبركة الرطلى ! فإذا ما أعلن موافقته خرج الوفد معلناً الجماهير بتمام الخطبة ، ويكون ذلك بأن يركب الخاطب ورفاقه الشخاتير ويسيروا بها فى الخليج حتى يلجوا البركة فيطوفوا بأرجائها ، وعندئذ تنطلق الزغاريد وتدوى صيحات الفرح . وفى اليوم الثالث لإعلان الخطبة تنصب الأعلام وتعلق القناديل ، ويقام فى المساء حفل كبير لعقد الزواج على يد أكبر مأذونى القاهرة سناً ! فإذا ما انتهت كل تلك المقدمات ألقيت الحلوى والحناء وغيرها فى البركة وبدأت المواكب تطوف خلال الأزقة والحارات .

وكانت النساء يخرجن سافرات الوجوه مزينات بأبهى

حليهن وحللهن حاملات خرقاً ملوثة بالدماء تمثيلا لدم الفتاة البكر ، كما كان بعضهن يركبن الزوارق متجولات فى أرجاء البركة !

ولما كان القاهريون يتجاوزون حدود اللياقة فى ذلك اليوم ، فقد أقيمت سلسلة على قنطرة المقسى ، التى كانت تصل بين الخليج والبركة ، لوقف عبور المراكب وإبطال تلك الموبقات !

وفى ذلك قال أحد شعراء العصر :

أطلقت دمعى على خليج مذ سلسلوه فراح مقفل
من رام من دهرنا عجيباً فلينظر المطلق المسلسل

وتحايل الناس بسبل شتى إمعاناً فى لهوهم ، ولم يعد فى الإمكان ردعهم بسهولة ، فلجأ طومان باى إلى منع السكنى حول بركة الرطلى ، فأضحت بيوتها خاوية زمناً غير قليل ، فرثى أحد الشعراء لحالها يومئذ وراح يندبها بقصيدة طريفة جاء فيها :

على بركة الرطلى نوحوا وعددوا لما حل فيها من نكال ومن خسر

* * *

محمد على باشا والأفاكة

فى مثل هذه الأيام ، منذ نحو ١٤٥ عاماً ، كان المصريون جميعاً يتحدثون عن امرأة أفاكة نشأت فى دمنهور وادعت أن عليها شيخاً من الجن يدعى الشيخ على ، إذا ما حضر أتى من المعجزات بما يحير الألباب . وقد ساعدها على سبك إفكها قدرتها على التكلم من البطن — الأمر الذى كان غريباً على الناس فى ذلك العصر .

ولما رأت هذه المرأة نجاح أمرها فى دمنهور عز عليها أن تحرم القاهرة بركاتها ، فرحلت إليها فى رفقة طائفة من المشعوذين ، بعد أن سبقتها دعاية واسعة .

وسرعان ما كان بيتها كعبة ذوى الحاجات ، فهذه ترجو حملا ، وهذا يشكو مرضاً ، وتلك رضاء الزوج ، وذلك ينشد فيضاً من الرزق ، وكان إلى جانب هؤلاء وأولئك آلاف من الجنود حشدوا لدفع عدوان الإنجليز على مصر سنة ١٨٠٧ ،وكلهم يطلب حجاباً يقيه رصاص العدو .

واستفحل أمر تلك المرأة ، وأصبح حديث القوم ما ما تأتيه من معجزات فى شفاء الأمراض وقضاء مختلف

الآمال . وظلت الحال كذلك حتى انتهى أمرها إلى محمد على باشا وكان حديث العهد بولاية الحكم .

كانت مشكلة معقدة تتطلب منه الحل السريع الحازم ، لاسيما أنه علم أن كبار المماليك وبعض ذوى النفوذ والثراء ولفيف ممن يحيطون به يؤمنون بما نسب إليها ، يضاف إلى ذلك أن شفاعتها كانت مقبولة لديهم .

لذلك بادر عزيز مصر وبعث فى طلبها . وذهب الرسل لإحضارها ، وكانت وقتئذ فى دار الباش أغا (رئيس خفر الليل) . ولما أرادوا أخذها ثار الحاضرون ، وفى مقدمتهم الباش أغا الذى أضافها . وعاد الرسل خائبين !

زاد ذلك الحادث فى أهمية تلك المرأة ، فأصبحت لا تسير إلا راكبة جواداً يحف بها الأتباع من المشعوذين ينشدون الأناشيد تمجيداً لها وإشادة بذكرها . وضاعف ذلك فى حنق محمد على ، فأصدر أمراً — دون تنفيذه الإعدام — إلى رئيس الشرطة ليحضرها .

وقبيل الغروب كان محمد على يدخن (شيشته) وفى حضرته بعض المقربين إليه ، وإذا به يسمع جلبة ، فلما استفسر عن سببها علم أن المرأة قد حضرت ، وبعد لحظات قصيرة كانت ماثلة أمامه ، فابتدرها محمد على باشا قائلا :

— بعد إذنك ، نريد أن نتكلم مع الشيخ الذى عليك .

— هذا غير ممكن إلا بالليل .

— ولماذا ؟

— لأن الشيخ ذهب منذ ساعة لأداة صلاة المغرب فى مسجد سيدنا الحسين .

— أو يغيب حتى يحضر ؟

— كلا ! سيكون هنا بعد صلاة العشاء .

— إذن ننتظره حتى يعود !

وانصرف الباشا ليتناول عشاءه تاركا الشيخة مع جلسائه ، وأمر أن لا تنصرف حتى يعود .

وبعد أن تعشى الباشا وصلى صلاة العشاء عاد إلى مجلسه وسألها :

— هل حضر الشيخ ؟

— نعم !

— هل يمكننا أن نتكلم معه الآن ؟

— نعم ، ولكن بعد إطفاء جميع الأنوار .

— لك ذلك

وهنا أسر محمد على باشا إلى بعض خدمه بإعداد مصابيح مضاءة يستحضرونها إذا ما تنحنح بصوت عال ؛ ثم أمر

بإطفاء الأنوار وقال للشيخة :

— استدع أستاذك !

وسرعان ما دوى فى الحجرة صوت الشيخة وهى تنادى: ياشيخ على ! !

وسمع الحاضرون صوتاً ضعيفاً كأنه خارج من أعماق الأرض يجيب النداء ويتمتم بكلمات خافتة إجابة عن عن الأسئلة التى كانت توجه إليه ، ثم ازداد الصوت وضوحاً وكأنه يكلم كل فرد من الحاضرين فى أذنه .

وأحس محمد على بالمهابة والجلال الذى لقيته الشيخة فى نفوس الحاضرين فقال :

— آمنا أنك من الأولياء ، فهل لنا أن نقبل يدك ؟ !

ولم تتردد الشيخة فى تلبية هذه الرغبة فمدت إليه بإطراف أناملها فعاتبها محمدعلى قائلا :

— « إننا نريد أن نقبل اليد كلها لتكون البركة أعظم ! » ، فانخدعت المرأة ومدت يدها ، فقبض عليها بشدة وتنحنح بصوت عال . وفجأة عم النور أرجاء الحجرة فى الوقت الذى كانت فيه الشيخة تحاول تخليص يدها من قبضة محمد على .

أدركت المرأة أن أمرها قد افتضح فركعت أمامه ولثمت

قدميه وطلبت العفو ، وهم محمد على أن يعفو عنها على أن لا تعود لتلك الخزعبلات ، ولكنه لاحظ موجة من التذمر تسود الحاضرين ، وهم يتبادلون همساً عبارات الاستياء لما أتاه الباشا معتقدين أن ذلك يعد انتهاكاً لحرمة الشيخة ، غافلين لضيق إدراكهم عن مغزى التماس المرأة العفو من محمد على .

ضاق صدر محمد على فصرخ فيهم :

— أيها المجانين الجهلاء ، أفيخدعكم مثل هذا الكذب الظاهر ؟

ثم وجه الحديث إلى رجال حرسه :

— ألقوا بهذه الأفاكة فى النيل .

عندئذ ضج الحاضرون بالاحتجاج ، وانصرف بعضهم ساخطاً ليبلغ الجماهير المنتظرة فى الخارج ذلك النبأ المثير . ومرت لحظات رهيبة بعاهل مصر الخالد ، غير أنه واجه الموقف بلباقة وثبات جأش فقال :

— مم تضجون ولم تصخبون ؟ إما أن هذه المرأة عليها شيخ حقيقة فهو لن يتخلى عنها ، بل سينقذها من الغرق ، وإما أنه لا شيخ عليها فتكون قد خدعتكم فلا يصيبها إلا ما هى به جديرة .

ولما كان هذا الكلام منطقياً فقد آمن به القوم . وسيقت

المرأة الشقية إلى النيل تحف بها المشاعل ، وهى تصرخ وتولول ، ولكن صرخاتها ضاعت وسط أصوات الشعب المتحمس لرؤية المعجزة الكبرى ، وهى النجاة من الغرق بفضل « الشيخ على » .

وألقيت « الأفاكة » فى اليم ، ولبث جمهور عظيم من أتباعها على شاطئ النهر يترقبون خروجها من الماء — دون ملل — ولكن بلا جدوى .

وهدأت الفتنة .

وانصرف محمد على إلى جيشه المحتشد بالقاهرة يعده للرحيل إلى الإسكندرية لإجلاء الإنجليز عنها .

* * *

مدينة تنشأ لتخليد ذكرى كلب

فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى كانت ويلز إمارة مستقلة يحكمها الأمير للويلين « L'we'yn ». وحدث أن خرج هذا الأمير للصيد فى إحدى ضياعه ، واصطحب معه زوجته وطفله ، وأقام الجميع فى منزل أنيق تحيط به الحاشية فى خيام . واتفق ذات يوم أن غادر الأمير

ورجاله محل إقامتهم الجديد جرياً وراء الثعالب ، وتركوا الزوجة مع طفلها الرضيع وبرفقتها عدد قليل من الخدم .

ولما انتصف النهار ترقبت الزوجة عودة قرينها ، فتركت طفلها فى مهده ينعم بالنوم الهادئ فى حراسة الكلب « جيليرت » ، وقصدت الخيام المجاورة لتشرف على ما أعده الخدم لطعام الغداء .

وفى أثناء غياب الأم تسرب ذئب إلى داخل المنزل وهم أن يفتك بالطفل ، ولكنه لم يتمكن من أن يصيبه بضرر لأن الكلب انبرى إليه ، وقام بين الاثنين صراع عنيف أطبق فى نهايته الكلب بفمه على عنق الذئب ، لم يتركه حتى مات مختنقاً .

وارتمى الكلب إلى جوار الطفل ليسترد قواه بعد هذا الجهد العنيف .

كل هذا والأم تطوف بالخيام واحدة بعد أخرى ، ولما اطمأنت إلى إعداد كل شيء همت بالعودة إلى المنزل ، وبينما هى فى طريقها إليه لمحت زوجها وحاشيته قادمين ، فوقفت تترقب وصولهم ، وما هى إلا لحظات حتى كان الزوج أمامها . وبعد أن قبلها سألها عن طفلهما فأخبرته



شعار أحد المحال بدجيليرت
وقد مثلت عليه القصة

أنها تركته نائماً بالمنزل فى حراسة الكلب جيليرت. وسارا كلاهما يتجاذبان أطراف الحديث ، وأحس الكلب بقدومهما ، وما كادا يخطوان الخطوة الأولى نحو الداخل حتى رأيا الكلب يخرج من الحجرة التى بها الطفل وقد لوثت الدماء الغزيرة فمه ، فجن جنون الوالد ، وظن أن الكلب قد فتك بفلذة كبده ، فأسرع إلى خنجره واستله وأغمده فى صدر الكلب وهو يحاول الوثوب ليحتضن سيده مهنئاً إياه بنجاة ابنه ، وسقط الكلب يعوى من الألم . وبينما الأب يجهز على الكلب إذا به يسمع هو وزوجته بكاء طفلهما داخل حجرته وقد أيقظه عواء الكلب ، فأسرعا إليه ووجداه على خير ما يتمنيان من صحة وسلامة .

وبينما الوالد يقلب أنظاره فى أركان الحجرة إذا به يجد ذئباً قد نزفت دماؤه وبرزت عيناه فأدرك مقدار الخطأ الذى ارتكبه نحو كلبه الوفى .

ولم يجد الأمير للويلين ما يعبر به عن شعوره نحو كلبه سوى أن حمله بين يديه ودفنه بجوار شجرة قريبة من الكوخ ، ونصب على القبر لوحاً رخامياً جميلا نقشت عليه تفاصيل الحادث . وأقام إلى جوانب القبر قصراً فخماً له ولزوجته ولابنه ، كما بنى مساكن كثيرة لأتباعه ، وأطلق على المدينة الجديدة اسم بدجيليرت « Beddgelert » أى قبر جيليرت. وهى تقع بمقاطعة كارنار فونشير فى شمال ويلز .

وبعد أعوام قلائل اختلف هذا الأمير مع إدوارد الأول ملك إنجلترا ، وقامت بينهما حرب انتهت بمصرع للويلين وضم ويلز لإنجلترا ولقب ولى عهد إنجلترا بلقب «أمير ويلز» ، وأخذ الملك إدوارد الأول وأتباعه يمحون آثار أمير ويلز عدوهم السابق ، فحطموا اللوح التذكارى ، وهدموا القصر ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يجلوا الناس عن تلك المدينة التى بقيت حتى الآن يروى أهلها قصة إنشائها . ومن الطريف أن أهل هذه المدينة شديدو العطف على الكلاب ، بل إنهم ليؤثروها على أنفسهم وعلى أبنائهم بمختلف مظاهر الترف ، وقلما يجد الزائر لها بيتاً يخلو من كلب . ألم تشيد المدينة نفسها تخليداً لذكرى كلب ؟ !

* * *

الإوز الذى أنقذ روما

فى أواخر مايو سنة ١٩٤٠ أظلمت الدنيا فى وجه بريطانيا وحلفائها إذ أن تقدم الألمان فى فرنسا سار بخطى سريعة ، وحدثت فى صفوف الجيوش الفرنسية والبريطانية ثغرات حال تدفق الجيوش الألمانية دون سدها ، ثم ازدادت الحالة سوءاً باستسلام ملك البلجيك ، وارتداد البريطانيين إلى دنكرك ، ثم الجلاء عنها ، وأخيراً بدأت معركة فرنسا وتساقطت مدنها واحدة بعد أخرى .

واجتمعت وزارة رينو الفرنسية لتدرس الموقف على ضوء الحقائق المرة ؛ وفى جو تشبع بالأسى واليأس اندفع المارشال فيجان « Weygand » يشرح الموقف من الناحية العسكرية مبيناً ألا فائدة من المقاومة . وفى خلال تحمسه لفكرة التسليم قاطعه المسيو كامبينشى « Campinchi » وزير البحرية عدة مرات مؤيداً فكرة المقاومة والدفاع مع إنجلترا . غير أن فيجان أجابه فى سخرية لاذعة وتهكم صارخ : « ياعزيزى كامبينشى ! لقد أنقذ الإوز الكابيتول مرة واحدة فقط ».

وانتصر الرأى الذى جنح إلى التسليم ، وانتهت الحوادث

على الوجه الذى لا يزال ماثلا للأذهان .

والآن ما هى قصة الإوز ؟

لم يكن الإيطاليون شعباً موحداً عندما أنشئت مدينة روما سنة ٧٥٣ ق.م ، بل لبثت الانقسامات والحروب تحول دون اتحاد أجزائها الكبرى ، حتى إن روما نفسها عانت من منافسة المدن الأخرى الشىء الكثير . وكان أكبر ما تعرضت له هو هجوم الغاليين (وهم أسلاف الفرنسيين والبلجيكيين وشعوب ألمانيا الجنوبية) الذين زحفوا من وراء الألب وأقاموا فى السهول الشمالية لإيطاليا ثم اتجهوا نحو الجنوب وحاصروا مدينة كلوزيم « Clusium » فطلب أهلها معونة روما ، أو على الأقل وساطتها ، فى دفع هذا البلاء . فقبلت روما الرجاء وأرسلت ثلاثة مندوبين من أعضاء مجلس الشيوخ للتوسط فى وقف الحرب .

ولما اجتمع المندوبون ببرينس « Brennus » زعيم الغاليين وأدلوا إليه بمهمتهم أجابهم برينس : « إن الحق لمن بيده القوة ، وإن روما نفسها ضمت بقوتها بلاداً لا حق لها فيها ، وهؤلاء أبناء كلوزيم لا يرضون بتسليم مدينتهم لنا ، وليس لديهم من أبنائهم ما يملأ ربوعها فضلا عن أراضيهم التى لا يجدون لها من يفلحها » .

وانصرف المندوبون ليسمعوا ما يقوله أبناء كلوزيم . وما كادوا يدخلونها حتى نسوا المهمة التى جاءوا من أجلها، ودفعتهم عواطفهم إلى تزعم المدافعين عن كلوزيم فى إحدى كراتهم على المهاجمين الغاليين . وفى خلال القتال صرع أحد الرومانيين جندياً غالياً وشوهد وهو يجرده من سلاحه .

أثار هذا العمل استياء برينس فأرسل مندوبه يشكو لمجلس الشيوخ بروما ما فعله مبعوثوه ، فلم يكترث المجلس لشكواه ولم يعتذر عما حدث ، بل إن الرومانيين رفعوا مندوبيهم الثلاثة إلى مراتب الأشراف .

كان رد برينس على ذلك أن رفع الحصار عن كلوزيم واتجه صوب روما ، ولم يجد فى طريقه مقاومة تذكر من البلاد التى مر بها ، كما أنه من ناحيته مر بها بسلام دون أن يصيبها منه ضرر يذكر ليتفرغ للانتقام ، حتى إذا ما قارب روما واجه من أبنائها جيشاً عدده أربعون ألفاً استطاع أن يهزمه بعد قتال عنيف .

انقسم الرومانيون على أنفسهم فبعضهم رأى القتال حتى الموت ، وبعضهم الآخر رأى أن يلوذ بالهرب إلى المدن المجاورة . وإلى جانب هؤلاء جميعاً قرر الشيوخ والكهنة أن يظلوا بالمدينة ليقدموا أنفسهم قرباناً للوطن ، فارتدوا

ملابسهم الرسمية والدينية ولبثوا ينتظرون فى الفورم « دار الندوة » .

انتصر الغاليون ولكنهم أضاعوا ثمرة انتصارهم ، إذ أنهم تركوا جنودهم يومين كاملين ينهبون ويسلبون فى معسكر الرومانيين ، ولو أنهم عجلوا بجنى ثمرة انتصارهم واتجهوا نحو روما لاستطاعوا احتلال الكابيتول .

وفى اليوم الثالث سار برينس على رأس الغاليين صوب روما فلما صار أمامها اندهش لما رآه، فقد رأى الأبواب جميعها مفتوحة لاستقباله ، والأسوار دون حماية أو تحصين ، فارتاب فى الأمر . ولما تأكد ألا مكيدة هنالك اتجه صوب الفورم ، وكانت الطرق خالية والسكون مستتباً ، ولما دخلوا الفورم وجدوا الشيوخ جالسين فى صمت تام وكأن على رؤوسهم الطير ، وقد جلسوا تحيط بهم المهابة والجلال ، حتى خيل للغاليين أنهم الأصنام التى يعبدها الرومان أو التماثيل التى يسجدون لها ، فسرت فى قلوب الغزاة الرهبة والخوف ، إلى أن قطع ذلك السكون العميق حادث تافه ، إذ تجاسر أحد الجنود الغاليين وأمسك بذقن بابيريس « Papyruis » أحد الشيوخ . وتلك إهانة لم يحتملها الشيخ الوقور ، فهوى بعصاه الأبنوسية على رأس ذلك الغالى

الجرىء فسقط على الأرض ، وكانت تلك الضربة بدء مذبحة ، إذ أعمل فيهم الغاليون سيوفهم وأجهزوا عليهم جميعاً دون اكتراث لمكانتهم أو تقدير لشيخوختهم ، واستمروا ثلاثة أيام يجوسون خلال المدينة ليسفكوا دماء من بها دون اعتبار للسن أو الجنس . وإذ تم لهم ذلك أوقدوا النار فيها ، وذلك فى عام ٣٩٠ ق.م

تعلقت آمال الرومانيين المهاجرين بالكابيتول بعد أن قضى على روما ، ولم يبق أمام برينس إلا الاستيلاء على ذلك الحصن ، فأرسل رسله تهدد بالتسليم العاجل أو الحصار القاتل ، فرفض الرومانيون الإذعان للوعيد ، فحاصر برينس الحصن ، واستعمل أقصى ما يستطيع من فنون حربية ليحول دون تسرب إمداد أو مؤن إليه ليضطر حاميته إلى التسليم .

وفهمت الحامية ما رمى إليه برينس فألقوا إليه من أعلى الأسوار بشىء من الخبز ، وكان لذلك معنى لم يفت زعيم الغاليين ، فدب اليأس إلى قلبه أياماً قليلة ، حتى جاءه نفر من رجاله ينبئونه أنهم وجدوا آثار أقدام تؤدى إلى صخرة يستطيعون منها مفاجأة الكابيتول .

كانت آثار الأقدام التى عثروا عليها لرومانى جاء

إلى الحصن يحمل رسالة المهاجرين إلى إخوانهم بالحصن — رسالة التشجيع على الاستمرار فى الدفاع وانتخاب دكتاتور لروما — وعاد الرسول يحمل بشرى الثبات فى الدفاع والإجماع على انتخاب كاميليس « Camilles » دكتاتوراً لروما .

صمم برينس على مفاجأة الكابيتول بطريق تلك الصخرة فاختيرت طائفة من أبسل الجنود وأصلبهم عوداً ليقوموا بتلك المهمة ، حتى إذا ما صاروا داخل الحصن سهلوا على الغزاة ولوجه ، فتحايل النفر المعهود إليهم بتلك المهمة على تنفيذها بطريقة التزموا فيها منتهى السكينة ، فلم يفطن إلى حركاتهم من بداخل الحصن ، حتى إذا ما وصلت طليعتهم للأسوار اكتملت عناصر المفاجأة ، إذ كان الحرس الرومانى فى نوم عميق ، وحتى كلاب الحراسة نفسها لم تثرها تلك الحركات الغريبة فقابلتها بهدوء عجيب .

أصبح النصر مسألة دقائق بل ثوان ، وإذا بإوز [١] يصيح ، فيهب جنود الكابيتول مذعورين ويدركون ما حاق بهم من خطر ، فيبادر كل منهم إلى سلاحه ، وجرى الجميع نحو الأسوار فأوذوا بطلائع العدو وأجلوه عنها .

---

(١) كان هذا الإوز معداً قرباناً للالهة « Juno » زوجة وأخت جوبيتر « Jupiter » وملكة السماء وحامية الزواج عند الرومان .



الرومانيون يردون الغاليين عن الـكابيتول

تحطمت آمال الغاليين ، وبدأ القلق يساورهم ، فى الوقت الذى أراد فيه الرومانيون التخلص منهم . وتلاقت الرغبتان ، وجرت مفاوضات اتفق فيها الطرفان على أن يجلو الغاليون لقاء مائة رطل ذهباً ، وعندما بدأت ساعة التنفيذ لاحظ الرومانيون أن الغاليين يزنون بأثقال أكثر مما اتفقوا عليه فاحتجوا ، فما كان من برينس إلا أن ألقى بسيفه فى كفة الأثقال ليزيدها ثقلا وقال : « ويل للمغلوب ! » ، وقامت

مناقشة حادة أدركها كاميللس الذى انتخب دكتاتوراً لروما ، وكان قد جاء لإنقاذ الكابيتول على رأس جيش كبير ، فلما وقف على سبب النقاش أمر بأن يعاد الذهب إلى الكابيتول قائلا : « نحن لا نفتدى وطننا بالذهب بل بالحديد ، وإنى المسئول عن عقد الصلح وسأشتريه بسيفى وحده » . وقامت الحرب من جديد وانتهت بجلاء الغاليين وانتصرت روما أخيراً .

لم تنته القصة بعد !

جلا الغاليون منهزمين ، وبقى أن يحتفى الرومانيون بالنصر ، فبدأوا بزعيم الحراس فعاقبوه على إهماله الإشراف الدقيق على حراسة الكابيتول ، فألقى به من أعلى الحصن .

أما الإوزات فتمجيداً لصراخها وتقديراً لصياحها أقيمت المواكب لها واختيرت إحداها وزينت بأبهى زينة ووضعت فى محفة طيف بها فى أنحاء روما ، وأطلق اسمها على الخطوة العسكرية المعروفة !

أما الكلاب فقد لقيت جزاء إهمالها فى حراستها وغفلتها عن تأدية واجباتها ، ولذا اعتاد الرومانيون أن ينتخبوا كل عام كلباً يقتلونه على خازوق من خشب البيلسان ! !

* * *

انتصار الشعب

تعتبر الحياة النيابية فى مصر حديثة إذا قيست بتاريخنا الطويل المجيد ؛ وحتى فى إنجلترا التى تعد أعرق الأمم(١) من الناحية الدستورية لاتتجاوز القرون السبعة إلا بقليل ؛ ولقد كافحت إنجلترا جل تلك الفترة لتدعيم سلطة الشعب. وقد انتقلت الروح النيابية إلى سائر الأمم بالتدريج ، حتى إذا ما تولى عرش مصر محمد على باشا أدخل نظام المشورة؛ ولم يكن المصريون يومئذ ليدركوا مهمة المجالس النيابية ، ولهذا لا نكون مغالين إذا قلنا إن مجالس المشورة فى عهد عزيز مصر لم تكن أكثر من مدارس يتعلم فيها رجال الوالى طرق إدارة البلاد وكيفية تدبير الأمور العامة .

فلما جاء عصر إسماعيل رأى ذلك العاهل الكبير أن يضيف إلى نواحى إصلاحاته الشاملة الناحية الدستورية ، فأصدر فى نوفمبر سنة ١٨٦٤ قراراً بتكوين مجلس شورى النواب الذى افتتحه فى نوفمبر سنة ١٨٦٦ ؛ ولعل

---

(١) من الحقائق المجهولة أن البرلمان الإيسلندى والبرلمان الهنغارى أقدم من البرلمان البريطانى وأن أولهما تجاوز عمره ألف عام .

هذه هى أول خطوة دستورية فى سبيل اشتراك المصريين فى إدارة شئون البلاد . ومهما قيل عن استئثار إسماعيل بالسلطة فلا ريب أن تلك المحاولة من جانبه تدل بوضوح على معرفته لطبيعة الأمم وضرورة مسايرة التطور الاجتماعى . وحسب إسماعيل فخراً أنه أنشأ ذلك المجلس مختاراً لامكرهاً ، كما كان الشأن فى غالب أمم الأرض . ولا يلام إسماعيل إذا كانت ساقا هذا المجلس لم تقويا على حمله فى أول عهده ، فقد كان أشبه بالطفل يتعثر حتى يقوى ويشتد .

وليس أدل على مدى سوء فهم المصريين للنظام النيابى حينئذ من أن الكثيرين منهم كانوا يخشون أن يكونوا نواباً حتى لا يغضبوا المدير أو رجال الحكومة فى أمر من الأمور ، حتى إن الحكومة فى ذلك العهد كانت ترغم الناس إرغاماً على قبول النيابة ، فإذا ما أصبحوا نواباً فهموا أن مهمتهم هى الموافقة على طول الخط .

يقول بعض الرواة إن أحد نظار إسماعيل أراد أن يفهم المجلس أن العادة جرت بأن يجلس المعارضون على اليسار ، فهرع إلى اليمين من كانوا فى اليسار قائلين : « إننا كلنا عبيد أفندينا ، فكيف نكون معارضين لحكومته ؟ ! »

ولكن هذا المجلس فى آخر عهد إسماعيل ، عند ما

اكتمل مرانه وفهم واجبه وألم بمسؤوليته ، أظهر مقدرة وحزماً وحرصاً على تدعيم قواعد الحكم الدستورى ، إذ لم يفرط فى واجبه أو يتجاهل حقوقه إزاء محاولة الحكومة الافتئات على سلطانه ، وبلغ من تضامن الأعضاء على تنفيذ إرادتهم أنهم هاجموا الحكومة ورابطوا بدارهم حتى أقيلت الحكومة التى تحدتهم .

حدث هذا فى جلسة شورى النواب المنعقد يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٨٧٩ وهاك نص محضرها :

« فتح الجلسة سعادة رئيس المجلس وقال :

عطوفتلو أفندم رياض باشا ناظر الداخلية شرف الجلسة يحمل أمراً عالياً سيتفضل بتلاوته على حضراتكم .

قال عطوفتلو رياض باشا :

قبل أن أتلو على حضراتكم الأمر العالى الصادر من مولاى ومولاكم أقدم لحضراتكم جزيل تشكرات الحكومة على ما أبداه المجلس من النشاط فى نظر المسائل التى عرضت عليه .

وإنى أتلو على حضراتكم الأمر العالى المشار إليه :

« نحن خديو مصر

بناء على ما حواه البند التاسع من لائحة مجلس شورى

النواب من أن مدة توليتكم عن الأهالى تكون ثلاث سنوات وما عرض علينا من مجلس النظار من أن المدة قد انقضت أصدرنا أمرنا بانفضاض المجلس وكلفنا ناظر داخليتنا بتنفيذ ذلك .

إسماعيل

تحريراً بمحروسة مصر فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩
بأمر الحضرة الفخمة الخديوية

رئيس مجلس الوزراء توفيق
ناظر الداخلية رياض

وإنى أختم كلامى بانفضاضكم اليوم ، وتقدم لكم الحكومة تشكراتها وثناءها على ما قمتم به من المآثر الحميدة فى خدمة البلاد .

عبد السلام المويلحى بك : لا أرى معنى لتشكرات الحكومة لنا ، فإننا لم نقم بعمل إلى الآن يكون له ولو شبه فائدة قد عادت أو ستعود على البلاد ، فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا عليها الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس .

عطوفتلو رياض باشا : مستحيل ينفض المجلس ؟ ! ماذا تقول حضرتك ؟ ؟ مستحيل فض المجلس ؟ كيف

يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا ، المعظم ؟ هل حضرتك فاهم جيداً قيمة مسئولية ما تقوله الآن ؟

عبد السلام بك المويلحى : نعم أنا فاهم ، وفاهم جيداً جدا ما قلته ، ومقدر مسؤولية ما أقوله تماماً .

عطوفتلو رياض باشا : هل حضرتك تتكلم عن نفسك فقط ؟ وهل إخوانك يوافقونك على هذا الكلام ؟ ما أظن أن حضراتهم يوافقونك على ذلك مطلقاً .

محمود بك العطار سر تجار مصر : موافقون البك المويلحى على ما قاله ياعطوفة الناظر . . .

عثمان أفندى غزالى : أنا والله موافق المويلحى بك بجوارحى على أقواله وأفكاره .

عبد الشهيد أفندى بطرس : أوافق عبد السلام بك المويلحى على ما قاله وما سيقوله مقدماً .

عطوفتلو رياض باشا : إذن أنتم جميعاً عصاة !

عبد السلام بك المويلحى : حلمك يا باشا . لا تغضب سريعاً ، والآن الحمد لله قد ظهر لعطوفتك موافقة إخوانى لأقوالى ، وهم يعرفون كلهم مقدار المسؤولية التى قلت عنها عطوفتك ويقدرونها حق تقديرها . . .

فاعلم ياعطوفة الباشا أن من الغريب أن تحمل لنا أمراً

عالياً اليوم يقضى بفض المجلس ، وهذا الأمر العالى مبنى على غلطة جوهرية فاضحة ، لأنها فى الواقع مغالطة مزرية من الحكومة السنية لمجلس نواب أمتها . وهى كيف جاز للحكومة أن تبنى الأمر العالى بفض المجلس على أن مدة انعقاده — وهى ثلاث سنوات — قد انتهت ؟ مع أن الحكومة تعلم والنواب يعلمون جميعاً أن تاريخ الديكريتو الذى صدر بانعقاد هذا المجلس وبتعيين سعادة أحمد باشا رشيد هذا رئيساً للمجلس هو ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨ ، فلم يمض إذن على دور المجلس سوى سنة وثلاثة أشهر ، فكيف أصبحت هذه المدة على حساب الحكومة ثلاث سنوات ؟ !

عطوفتلو رياض باشا : أما حساب غريب وعجيب ياحضرة النائب . إن مدة انعقاد المجلس هى من بدء النطق الكريم الذى صدر من مولانا الخديو المعظم فى حفلة طنطا(١) فاحسب حضرتك تجد أن المدة فاتت وزيادة .

عبد السلام بك المويلحى : ما هذا الكلام ياعطوفة الباشا ؟ حفلة طنطا ؟ وما هى حفلة طنطا ؟ وما لنا وحفلة طنطا الآن ؟ وما هو مقدار رسمية حفلة طنطا ؟ وما قيل فيها من خطب رداً على مافاه به سمو الخديو المحبوب

(١) ورد ذكرها فى الوقائع المصرية بالعدد ٦٧٢ فى ٢٧ أغسطس ١٨٧٩ .

فى تلك العزومة لحضرات المدعوين إليها ؟ !

إن الغريب والعجيب هو حساب الحكومة لا حسابنا . . عزومة شرفها سمو الجناب العالى وتناول الطعام مع المدعوين إليها وقيل فيها كلام وخطب من سموه ومن المدعوين ولم يدون منه حرف واحد على الإطلاق لا بطريقة رسمية ولاشبه رسمية تفيد أن كلام سموه فيها كان أمراً عالياً له قيمة القانون ويؤثر فى مدة انعقاد مجلس شورى النواب وتحديد تلك المدة ؟ ! أليس إذن هذا الكلام عجيب وغريب من عطوفتكم لا منا ؟ ؟

إبراهيم أفندى الوكيل : عجيب جداً . . بالله اتركوا عزومة طنطا وما حصل فيها وخلوا على رأى المثل العامى (زكايب الهم مقفولة) !

عطوفتكم رياض باشا : يعنى حضراتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم ؟ يعنى حضراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوربا وأمريكا ؟ ؟

أحمد على العديسى بك : ياباشا أنت الآن شتمتنا . . ما هذا الكلام ؟ يعنى عطوفتك شتمت نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية .

عبد الشهيد أفندى بطرس : أنا أعتبر هذه العبارات

إهانة من ناظر الداخلية للمجلس وأطلب إثباتها فى المحضر؛ وأقول لعطوفته إن كلامه هذا وقاحة ، وإن المجلس لا يقبل من ناظر الداخلية هذه الوقاحة بل يردها له .

شيخ العرب أحمد الصوفانى : أوافق حضرة العضو على رد هذه الإهانة للناظر ، وأطلب من المجلس أن ينظرها فيما بعد ليحاسب عطوفته عليها حساباً عسيراً حتى يعلم أن فى البلاد أمة حية ولها نواب أحياء يدافعون عن كرامتها وكرامتهم .

عبد السلام بك المويلحى : أسمعت ياباشا ؟ ! ! أرأيت عاقبة تسرع عطوفتك فى الكلام وعدم ضبطك عواطفك كما قلت لك فى أول كلامى ؟ ؟ ياباشا اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب بل المسألة مسألة نواب لهم عقول تفهم جيداً رغائب الأمة التى أنابتهم عنها واعلم ياباشا أن أهل وطنك ليسوا بأقل شعوراً بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات مثل الأمم الأخرى التى هى فى الواقع أقل منا كثيراً فى المكانة المالية والعمرانية كصربيا وبلغاريا وغيرهما . »

وهنا وجه الأعضاء كلاماً شديداً إلى رياض باشا الذى اضطر للانسحاب .

ثم طلب عبد السلام بك المويلحى من هيئة المجلس قراراً باستمرار الجلسة منعقدة ليل نهار ، فوافق المجلس

بالإجماع بما فيهم سعادة الرئيس على هذا الطلب ، واستمر وجود الأعضاء بالمجلس وقاعاته بلا انقطاع ، واتفقوا على أن يكون ثلث الأعضاء — بالتناوب — يبقى فى المجلس ليلا ويبيت به ويحضر بالنهار سائر الأعضاء وتستمر الجلسة منعقدة .

وقد اتفق حضراتهم على إحضار طعام العشاء ليلا لمن كان عليهم الدور من إخوانهم فى المبيت ، وقد بدأ إبراهيم بك الجيار بإحضار الطعام جميعه وكان كثيراً وفاخراً فى الليلة الأولى . »

وبعد ذلك استقالت الوزارة .

ووصف المحضر بعد ذلك ما كان من تولى شريف باشا الحكم وقال :

« وفى يوم ١٠ أبريل سنة ١٨٧٩ الموافق ١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦ تلا سعادة رئيس المجلس على حضرات الأعضاء خطاباً من دولة وزير الداخلية ونصه حرفياً كما ورد فى الوقائع المصرية الصادرة فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦ » :

« ولو أنه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن انفضاض مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسب ما تحرر لسعادتكم

فى ربيع آخر بنمرة ٣١ لكن حيث أن مقتضيات الأحوال مستلزمة إبقاءه للمذاكرة والمفاوضة معه فى بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره ، واقتضى تحريره لسعادتكم للإحاطة بذلك وتفهيم حضرات أعضائه بعدم الانصراف »

إمضاء : شريف

* * *

الشاى يحرر الولايات المتحدة

كانت لإنجلترا على الشاطئ الشرقى لأمريكا الشمالية مستعمرات كثيرة أسس أغلبها البروتستانت الذين نزحوا من إنجلترا فراراً من الاضطهاد الدينى أيام أسرة إستيوارت (١٦٠٣ — ١٦٤٩ م) ثم من (١٦٦٠ — ١٧١٤ م) ومن الاضطهاد السياسى أيام كرمويل (١٦٤٩ — ١٦٥٨ م)

ثم أخذ الأوربيون يؤمون أمريكا ، وبدأ سيل الهجرة منذ عام ١٦٢٠ ، فقد جذبتهم الأرض الغربية الجديدة كما يجذب المغناطيس برادة الحديد .

ولكن أمريكا لم تصبح يومئذ خليطاً من الأجناس كما

صارت الحال فيما بعد ، إذ كان السواد الأعظم من سكانها لا يزال إنجليزى الأصل يفخر بالانتساب إلى إنجلترا ، ولا يجد غضاضة فى أن يعمل مع جاره الفرنسى أو الهولندى فى سبيل استغلال تلك الأراضى البكر ، كما لايأنف من أن يصاهره ويرتبط معه برباط وثيق .

وهنالك عامل مهم عمل على ربطهم حدده أحد المهاجرين الفرنسيين سنة ١٧٥٩ بقوله : « ليس لنا أمراء نكد ونجوع ونبذل الدماء من أجلهم ، فالمرء هنا حر كما يجب أن يكون ! »

لقد كانوا إذن يعشقون الحرية فى جميع صورها : حرية العقائد والأديان ، لا يسأل الواحد منهم عن ماضيه ، بل يحاسب على مقدرته فى الإنشاء والتمهيد والتعمير ، كما كانت لديهم خبرة ومران على الحكم الذاتى . إذ كان لكل مستعمرة مجلس نيابى يقرر شئونها الداخلية ويفرض الضرائب ، ولم يكن الإنجليز إلا ممثلين للتاج البريطانى لا يتدخلون فى الشئون الداخلية لتلك المستعمرات .

وحدث فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر أن نشبت الحرب المعروفة باسم حرب السنوات السبع بين فرنسا وإنجلترا (١٧٥٦–١٧٦٣) ، وخرجت الأخيرة منها مثقلة بالأعباء المالية التى تكبدتها بسبب تلك الحروب .

لم يجد الإنجليز وسيلة لسد العجز سوى الضغط الاقتصادى بمختلف الطرق على المستعمرات للحصول على أقصى ما يمكن من مال ، فبدأوا بتقييد التجارة فى المستعمرات الأمريكية وغيرها بقيود شديدة ، منها تحتيم استيراد جميع الحاجيات التى تفتقر إليها تلك المستعمرات من إنجلترا ، وضرورة إرسال جميع الصادرات إلى إنجلترا وحدها دون غيرها .

ولكن الأمريكيين الذين أسهموا فى تلك الحرب طوعاً برجالهم وأموالهم لم يرغبوا فى دفع ضرائب جديدة ، فعدوا هذا الإجراء من جانب إنجلترا أمراً شاذًّا . . . يضاف إلى ذلك قانون الدمغة الذى قضى بوضع طوابع دمغة تتراوح فئاتها بين نصف بنى (مليمان) وثمانين شلناً (نحو أربع جنيهات) على الجرائد والنشرات والرخص والفواتير التجارية وعقود الإيجار والسندات القضائية وأمثال ذلك من وسائل المعاملة ، واعتبر عدم لصق تلك الطوابع خرقاً واضحاً للقانون .

ولكن الأمريكيين عدوا هذا القانون إجراء غير عادل قابلوه بحرق تلك الطوابع وإجبار القائمين على بيعها بالتنحى عن وظائفهم ، فاضطر الإنجليز لإلغاء ذلك القانون .

وكان لهذا التقهقر من جانب إنجلترا أثره فى الأمريكيين ،

إذ بدأوا يتحدثون عن الحرية والاستقلال ، وأخذت هاتان الكلمتان تسريان إلى القلوب وتهزان أعطاف الأمريكيين حتى رددتهما ضربات الطبول فى أرجاء تلك البلاد ، وأخذ الناس يتدربون خفية على أساليب القتال .

ورأت إنجلترا بعد فشل قانون الدمغة أن تلجأ إلى وسيلة أخرى .

وحدث فى سنة ١٧٧٣ أن تكدست لدى شركة الهند الشرقية كميات كبيرة من الشاى ، فأرادت الحكومة الإنجليزية انتهاز الفرصة وضرب عصفورين بحجر واحد ، فتساعد الشركة وتحصل على ضريبة جديدة .

وما كاد النبأ يترامى إلى الأمريكيين حتى احتجوا ، ولكن إنجلترا لم تصخ لاحتجاجهم لأنها لم تكن تدرك تماماً شعور الأمريكيين ومبلغ استعدادهم الخفى ، إذ لم يستمع رجالها لدقات طبول التدريب العسكرى ، ولم يفطنوا لقرب هبوب العاصفة ، لأنهم نظروا لأبناء المستعمرات كصبيان لم يبلغوا الحلم ، وليسوا أهلا لإبداء رأى أو إثارة معارضة فى أمر من الأمور ، فى حين كان الأمريكيون رجالا كاملى الرجولة .

وبيت الأمريكيون أمرهم فما كادت السفن الحاملة



الأمريكيون المتنكرون فى أزياء الهنود الحمر يلقون بالشاى فى البحر

لشحنات الشاى تصل لميناءى نيويورك وفيلادفيا حتى اضطرها الشعب إلى الإقلاع دون تفريغ حمولتها .

أما أبناء بوسطن فقد أضمروا أمراً آخر ، وتجاوزت المقاومة حدًّا أبعد مما جرى فى الميناءين السابقين ، إذ كان

فى انتظار الشاى خمسون من الأمريكيين البواسل بقيادة صموئيل آدمز . وفى ليلة ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣ هاجم السفن هؤلاء الأبطال وهم متنكرون فى ثياب الهنود الحمر ، ورموا بالشاى فى البحر .

وتنفس الأمريكيون الصعداء ، وشعروا بشىء كثير من الارتياح . ولكن الحكومة الإنجليزية اعتبرت ذلك تحدياً لسلطتها .

وغضب الملك جورج الثالث ، وحاول بعض المعتدلين أمثال وليم بت حض الحكومة على اتباع سياسة الاعتدال بدلا من أساليب العنف ، ولكن أم الملك جورج قالت له : « كن ملكاً يا جورج ! » فما كان منه إلا اندفع مع الحكومة فى إنزال القصاص بالثائرين ، وصدرت عدة قوانين صارمة فيها كثير من الحد من حرية الأمريكيين ، كما تقرر إقفال ميناء بوسطن حتى يؤدى ثمن الشاى التالف .

أجاب الشعب الأمريكى على ذلك بعقد الاجتماعات علناً ، وأخذت الصحف تهاجم تلك القوانين الجائرة ، وعقدت بضعة مؤتمرات عامة بين المستعمرات أعلن فيها الأمريكيون حقهم فى سن الضرائب ، وطلبوا إبعاد الجنود الإنجليزية ، وقرروا قطع العلاقات التجارية بين

أمريكا وإنجلترا ، واستفحل النزاع ، وشددت الحكومة الإنجليزية النكير على الروح الثورية ، وأطلق الإنجليز أول رصاصة فى ١٩ أبريل سنة ١٧٧٥ ، فأجابهم الأمريكيون . وهكذا بدأت الثورة وجرت معارك دامية بين الفريقين ، واجتمعت كلمة المستعمرات على إسناد قيادة جيش التحرير إلى واشنطن .

واستطاع هذا البطل الخالد ، برغم ما صادفه من مشاكل جمة أن يحرز انتصارات كثيرة وفى يوم ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ أعلن الأمريكيون استقلالهم ، وأخذت الحرب بعد ذلك التاريخ طريقاً شاقًّا كانت نقطة التحول فيه هزيمة الإنجليز فى موقعة ساراتوجا (بولاية نيويورك) ، ولازم التوفيق الأمريكيين ، وشعر الإنجليز بالفشل القريب ، فحاولوا ترضية الثائرين بمختلف الوسائل ، ولكن الأمريكيين رفضوا كل العروض ، وتوالت الإمداد من بعض الدول الأوربية ، حتى اضطر الإنجليز للتسليم يوم ١٩ أكتوبر سنه ١٧٨١ فى يوركتون « Yorktown » بولاية فرجنيا . وأمضيت معاهدة السلم التمهيدية فى نوفمبر سنة ١٧٨٢ ، ثم تمت المعاهدة النهائية فى يناير سنة ١٧٨٤ ، وبها دخلت الولايات المتحدة فى عالم الدول المستقلة باعتراف إنجلترا !

يتولى عرش مصر ثلاث مرات

يعد عصر المماليك من أزهى عصور تاريخنا القومى ، إذ لازالت آثاره المادية شاخصة بين ظهرانينا إلى اليوم ، وهو من ناحية أخرى غنى بسلاطينه الذين بنوا إمبراطورية شاسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ، خطب ودها ملوك آسيا وأوربا ، وانتقل فى عهدها مقر الخلافة من بغداد إلى مصر .

وفى طليعة هؤلاء السلاطين الناصر محمد بن قلاوون الذى ولد وأبوه يحارب الصليبيين فى بلاد الشام، وقد تم له الاستيلاء على حصن منيع بعد أن استعصى عليه ، فكان نبأ مولده بشرى سعيدة لأبيه ، ثم انتقل إليه الملك عام ٦٦٣ هـ — ١٢٩٣ م بعد وفاة أخيه السلطان خليل ، فألقيت على كاهله أعباء الحكم وهو فى التاسعة من عمره .

حاول بعض الأمراء اغتصاب عرشه ، ولكن آخرين ممن غمرهم فضل أبيه جاهدوا فى سبيل الإبقاء على سلطته . وكان توليه فى فترة امتلأت فيها البلاد بالفتن عقب مقتل أخيه خليل .

بدأ حكمه بتعيين الأمير زين الدين كتبغا أتابكاً للعسكر

ونائباً للسلطنة لإخلاصه لذكرى أخيه وانتقامه من قتلته ، ثم معاونته على الوصول سالماً إلى العرش ؛ كما عين الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً له .

غير أن نائب السلطة والوزير وثالث هو حسام الدين لاجين (أحد قواد الجيش) تنافسوا على اغتصاب عرشه ، وانتهى الصراع بمقتل الشجاعى وإعلان خلع السلطان الناصر وتولية كتبغا سلطاناً باسم العادل سنة ٦٩٤هـ على أن يكون لاجين نائباً له . واضطر الناصر منذ ذلك الحين إلى الإقامة فى القلعة والاحتجاب عن الناس .

ولكن الأقدار أبت أن تجامل العادل السلطان الجديد ، إذ أصيبت البلاد بالغلاء والوباء والجدب ، وانخفض ماء النيل ، فضلا عن سوء سياسته ؛ كل ذلك دفع نائبه لاجين إلى العمل على الحلول محله ، فثار عليه واضطره للفرار إلى الشام وأعلن تنازله ، وعندئذ بايع الأمراء لاجين سلطاناً سنة ٦٩٦هـ ، فعجل بإرسال الملك الناصر إلى الكرك ، بحجة إبعاده عن مواطن الخطر فى مصر حتى يبلغ سن الرشد .

وبعد أن أطمأن لاجين على ملكه سار سيرة أغضبت الأمراء ، فاشتد حنقهم عليه ، واتفقوا على الغدر به ؛

وتمكنوا من قتله سنة ٦٩٨ هـ ، فتجدد التفكير فى إعادة الناصر إلى عرشه . وحاول القتلة اغتصاب الملك ولكنهم فشلوا فيما أرادوا وقتلوا بدورهم ؛ وتحالف لفيف من أكابر الأمراء على تدبير أمور الدولة جميعاً نحو شهر ، حتى وصل الناصر من الكرك فاستقبله المصريون جميعاً استقبالا حماسيًّا مطالبين بالانتقام من كتبغا ومن أعوان الأمراء المتآمرين مما جعل هؤلاء يحتاطون لأنفسهم .

ولما استقر الناصر على العرش عين الأمير سيف الدين سلار نائباً للسلطنة ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير إستاداراً ، وكان اختياره لهما غير موفق لأنهما ضيقا عليه ولم يمكناه من الاتصال بشعبه أو التصرف فى أمواله بل حجرا عليه وقررا له راتباً شهريًّا ضئيلا .

حاول الناصر القبض عليهما والتخلص منهما ولكنه فشل ، فلم يجد بدًّا من الرحيل عن مصر مختاراً قبل أن يتعذر عليه ذلك ، متظاهراً بالسفر للحج ؛ ولكنه ذهب إلى الكرك وكتب إلى أمراء مصر بأنه اعتزم الإقامة نهائيًّا بها . وعند وصول كتابه هذا استقر رأى الأمراء على دعوته إلى مصر وإلا خلعوه وكتبوا إليه كتاباً جاء فيه :

« . . . فخل عنك الصبا وقم واحضر إلينا وإلا بعد ذلك

تطلب الحضور ولا يصح لك وتندم ولا ينفعك الندم .. »
ولكنه لم يكترث لتهديدهم .

واستقر رأى أمراء مصر على أن يعهدوا بالملك إلى الأمير سلار نائب السلطة ، ولكنه اعتذر وأحال تلك المهمة الجسيمة إلى الأمير بيبرس .

حاول بيبرس الحصول على تأييد نواب مصر بإمارات الشام ، ولكن أغلب هؤلاء أبوا أن يجاروه ، بل اتصلوا بالناصر يعرضون عليه استعدادهم لمعاونته على استرداد ملكه ، ولكنه دعاهم إلى التريث حتى تتحرج الأمور أمام بيبرس وحينئذ يمكن التخلص منه .

وعلم بيبرس بذلك فاجتهد فى بذل الوعود لضم أمراء الشام ، فتظاهر بعضهم بالموافقة فى حين كانوا يضمرون الولاء للناصر . ولما أرسل بيبرس مهدداً الناصر بسوء المصير إذا لم يكف عن الاتصال بأمراء مصر والشام رأى الأخير أنه لا مفر من بدء العمل الجدى ، فأعد عدته للرحيل إلى مصر . وما كاد النبأ يترامى إلى أهلها حتى تظاهروا ضد بيبرس .

وعمد بيبرس إلى الخليفة المستكفى بالله وحصل منه على عهد بتوليته الملك ، كما جدد البيعة وأخذ العهود والمواثيق ،

ولكن ذلك كله لم يغنه فتيلا ، إذ شالت كفته وكثرت سيئاته وازداد كره المصريين له .

روى ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور » أن النيل توقف فى عهده عن الزيادة سنة ٧٠٩ هـ فكان العامة يغنون :

سلطاننا ركين(١) ونائبه دقين(٢) يجينا الماء من اين ؟
هاتوا لنا الأعرج(٣) يجىء الماء يدحرج

ويظهر لنا كره الخاصة لحكم بيبرس هذا من قول الشاعر شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم الشارمساحى :

قل لبيبرس إن الدهر ألبسه
أثواب عارية فى طولها قصر
لما تولى الخير عن أمم
لم يحمدوا أمره فيها ولاشكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمن
لا النيل أوفى ولاوفاهم مطر

لهذا آثر إعلان خلع نفسه من السلطة بعد أن استولى على ما بخزائن الدولة من مال وفر هارباً . فلما علم بذلك

(١) ركين يراد به ركن الدين بيبرس .
(٢) الأمير سلار لأن ذقنه كان بها شعر .
(٣) الناصر لأنه كان به بعض العرج .

العامة أدركوه ورجموه بالحجارة .

وتقدم الناصر إلى مصر سنة ٧٠٩ هـ واسترد ملكه للمرة الثالثة والأخيرة ، وبدأ يحكم بنفسه ، فتخلص من أعدائه ، ونجح فى تكوين إمبراطورية بسطت نفوذها على المناطق التى تمتد من برقة غرباً إلى ساحل البحر الأحمر شرقاً بما فيه بلاد اليمن والحجاز ، ومن آسيا الصغرى شمالا حتى بلاد النوبة جنوباً حتى خطب وده ملوك أوربا وآسيا .

وكانت نهاية حكمه عام ٧٤١ هـ — ١٣٤٠ م فكأنه حكم فى الفترة الثالثة نحو اثنتين وثلاثين عاماً كانت كلها خيراً وبركة على البلاد وتنظيماً وتجديداً وإنشاء فى جميع النواحى .

* * *

أمريكا تدفع جزية للمغاربة

ظل البحر الأبيض المتوسط زمناً طويلا مجالا فسيحاً للقرصنة التى تركزت فى أواخر القرن الثامن عشر فى بلاد المغرب (مراكش والجزائر وتونس وطرابلس) ، وعمد أمراء تلك البلاد إلى الإغارة على مراكب الدول الأوربية ونهبها

وأسر بحارتها والاحتفاظ بهم إلى أن تقوم حكوماتهم بدفع فدية عالية لقاء إطلاق سراحهم .

وكانت الدول الأوربية ومنها إنجلترا — سيدة البحار يومئذ — تدفع جزية سنوية لهؤلاء الأمراء لقاء تركهم سفنها تمر بسلام مفضلة ذلك على الاشتباك معهم فى حروب قد تثير الدولة العثمانية وتقطع علاقاتها معها ، لأن أغلب أجزاء تلك البلاد كان يتبعها يومئذ ؛ هذا إلى انشغالها بإنشاء مستعمرات جديدة أو توطيد نفوذها فيما كان تحت يدها .

ولما استقلت أمريكا وأصبح لها أسطول خاص اضطر جورج واشنطن إلى اتباع تلك العادة ، وعقد مع أمراء المغرب معاهدات تدفع الولايات المتحدة بموجبها مبلغاً معيناً كل عام . وقد بلغ ما دفعته طوال مدة رئاسة واشنطن وآدمز (١٧٨٩ — ١٨٠٠ (نحو مليونى دولار (٣٠٠,٠٠٠) ولكن حدث أن طمع الأمراء فى رفع أنصبتهم ، وتمادى حاكم طرابلس وأقدم سنة ١٨٠٣ على تحطيم سارية العلم المرفوعة على القنصلية الأمريكية وطرد القنصل ، وكان يومئذ وليم إيتون « Wiliam Eaton » ، وحاولت الولايات المتحدة غسل تلك الإهانة ، ولكن السفن الحربية التى أرسلتها كانت قليلة العدد فلم توفق .



وليم إيتون

وتقدم وليم إيتون القنصل الأمريكى السابق لحل تلك المشكلة – وكان يومئذ يعمل بالأسطول الأمريكى فى البحر الأبيض ، الذى فشل فى إخضاع طرابلس – وواتته

الفرصة سنة ١٨٠٥ ، إذ أن يوسف الكارامانلى والى طرابلس كان قد طرد أخاه أحمد حاكم مدينة طرابلس ، فالتجأ الأخير إلى مصر ، فاتصل إيتون به فى القاهرة ، واتفق معه على أن يعيده والياً لطرابلس على أن يكون صديقاً للولايات المتحدة ، وأعدت حملة لغزو طرابلس ، وكونت سرًّا فى مصر ، وكانت عدتها ٥٠٠ جندى أغلبهم من العرب واليونانيين ، وكلهم تحت قيادة عشرة أمريكيين .

وقامت الحملة من برج العرب ، وقد تمكنت تلك الحملة بمساعدة بعض السفن الأمريكية من احتلال درنه ، فأسقط فى يد والى طرابلس ، فهدد بقتل الأسرى الأمريكيين . وجرت مفاوضات أسفرت عن تعهد الأمريكيين بدفع ٦٠,٠٠٠ دولار فدية للأسرى والاستمرار فى دفع الجزية المعتادة ، وتم ذلك سنة ١٨٠٧ .

ولكن الاعتداء لم يقف بعد ذلك فاضطرت الولايات المتحدة عام ١٨١٦ إلى إعداد حملة بحرية ضخمة ما كاد المغاربة يرونها حتى أسرعوا إلى طلب الصلح ، وبدأت العلاقات فى التحسن وألغيت الجزية نهائيًّا .

* * *

يشهد مصرع ثلاثة رؤساء لأمريكا

بعد أن انتخب إبراهام لنكولن عام ١٨٦٠ رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية بقليل قامت الحرب الأهلية بين الولايات الشمالية والجنوبية بسبب اختلافهما على مبدأ تحرير العبيد . وكان بين من جندوا دفاعاً عن فكرة إلغاء الاسترقاق الشاب روبرت لنكولن ابن الرئيس . وانتهت الحرب سنة ١٨٦٥ بانتصار الرئيس والولايات الشمالية التى آزرته ، وقد أعيد انتخاب لنكولن مرة ثانية سنة ١٨٦٤ .

وفى مساء ١٤ أبريل سنة ١٨٦٥ ، وبينما كان الرئيس فى مسرح فورد بواشنطن يشهد إحدى التمثيليات إذا بأحد الممثلين واسمه جون بوث يغتاله .

واتفق يومئذ أن روبرت ابنه — وكان معسكراً فى مكان بعيد عن العاصمة — كلف بتقديم تقرير عن بعض المسائل الحربية المتصلة بالحرب إلى رؤسائه ، فعجل بتنفيذ الأمر . ولما وصل إلى العاصمة وعلم بوجود أبيه بالمسرح أسرع لمقابلته ، ولكنه لم يكد يجتاز باب الدار حتى فوجئ بما أذهله ، إذ رأى الناس يحملون أباه وقد تلوثت ملابسه بالدماء إثر الرصاصة

التى أطلقت عليه وعجلت بموته فى اليوم التالى .

ومضت بضعة أعوام درج خلالها روبرت فى وظائف عدة حتى أصبح وزيراً للحربية فى عهد الرئيس جارفيلد سنة ١٨٨١ ، وحدث أن استدعاه الرئيس لمرافقته فى رحلة خارج واشنطن ، ولكن بعض الشواغل حالت دون تلبيته تلك الدعوة وتطلبت بقاءه فى العاصمة ، فرغب فى أن يعتذر للرئيس عن مرافقته وعجل بالذهاب للمحطة ليبلغه ذلك قبل سفره . ولكنه لم يكد يجتاز فناء المحطة حتى رأى الرئيس محمولا إثر إصابته برصاصة من شاب طائش يدعى جيتو.



روبرت لنكولن

وبعد عشرين عاماً ، أى سنة ١٩٠٢ ، أقيم فى بفلو معرض كبير للدول الأمريكية ، وتلقى روبرت لنكولن دعوة من الرئيس ماكنلى ليكون فى رفقته فى أثناء زيارته لذلك المعرض ، وأجاب روبرت الدعوة ولكن ظروفاً خاصة أرغمته على الوصول متأخراً بعد دخول الرئيس بدقائق .

فما كاد يصل إلى باب المعرض حتى رأى الرئيس ماكنلى محمولا بعد أن اغتاله فوضوى يدعى ليون زوبجوز .

وهكذا قدر له أن يشهد مصرع أبيه ومصرع رئيسين من بعده ! . . .

* * *

تمثال الحرية كان لمصر لا لأمريكا

عندما منح سعيد باشا صديقه ديلسبس عقد امتياز حفر قناة السويس واستغلالها ، وأعلن ذلك لقناصل الدول نزل هذا النبأ على أغلبهم نزول الصاعقة ، وأقيمت عقبات شتى وأبديت معارضة قوية فى مصر وفى تركيا لإحباط المشروع ، ولكن صبر ديلسبس وجلده وقرابته من الإمبراطورة أوجينى ومعاونتها وزوجها له ، كل ذلك مكنه من التغلب على جميع الصعوبات ، حتى إذا ما استهل عام ١٨٦٩ لم يبق إلا اتخاذ الإجراءات اللازمة للافتتاح .

وانتهز إسماعيل تلك الفرصة ودعا حكام أوربا وعظماءها لشهود حفل الافتتاح ، وكان فى طليعة من لبوا دعوته

الإمبراطورة أوجيني قرينة نابليون الثالث .

وقد لقى المدعوون وفى طليعتهم الإمبراطورة كل إجلال وإكرام ، وتم الافتتاح فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ؛ وبعد قليل عاد ضيوف إسماعيل إلى أوطانهم وكلهم يتحدث بما لقى فى مصر من عظيم الحفاوة .

وكان أشد هؤلاء تأثراً الإمبراطورة أوجيني ، فهى قرينة صاحب مشروع القناة ومنفذه ، وقرينة عاهل الأمة الفرنسية التى احتضنت المشروع . فجالت بخاطرها عقب عودتها إلى فرنسا — ونفسها نشوى بما أحرزته بلادها من نصر — أن تعمل على تمجيد ذلك المشروع بإقامة تمثال فخم ينصب على مدخل القناة تخليداً لتلك الذكرى وإكباراً لنهضة مصر على يد إسماعيل ، فعهدت إلى المثال الفرنسى فردريك أوجست بارتولدى فى تنفيذ فكرتها .

وامتثل الفنان للأمر وأخذ فى تصوير الفكرة ، وعندما انتهى من عمله كان التمثال الذى هدته إليه قريحته هو تمثال فلاحة مصرية تحمل مصباحاً بيدها وهى تبسطها نحو آسيا ، ورأى أن يكتب على قاعدة التمثال « مصر تبعث النور إلى آسيا » .

وبينما المثال منهمك فى إخراج نموذج مصغر للتمثال

قامت الحرب بين فرنسا و بروسيا (ألمانيا) فى يوليه سنة ١٨٧٠ وانتهت بانتصار ألمانيا ، وأسر الإمبراطور فى معركة سيدان سنة ١٨٧٠ ، ثم سفره إلى إنجلترا بعد الصلح سنة ١٨٧١ ومعه زوجته أوجينى .

وعادت فرنسا إلى الحكم الجمهورى من جديد ، ورأى فريق من أبنائها أن يقدموا تحية لأمريكا إثر خروجها منتصرة من حرب التحرير تذكاراً للصداقة القديمة بين الدولتين فبدأت الاكتتابات تنهال على اللجنة التى تشكلت لهذا الغرض عام ١٨٧٤ ، وتم جمع ما قيمته ربع مليون دولار وكلف المثال بارتولدى بعمل تمثال يحقق تلك الفكرة ، فوجد أمامه تمثالا بذل فيه كل ما استطاع من براعة فنية ليكون عنوان مجده الخالد ، ولكنه لن ينجح فى إقامته لسقوط الإمبراطورة من جهة وللمتاعب المالية التى لاقتها شركة قناة السويس فى أعوامها الأولى .

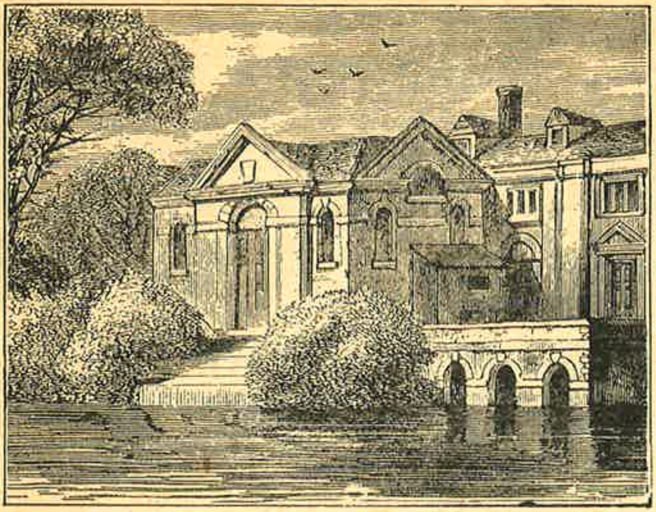
لهذا تناول تمثاله الأول وأدخل عليه من التعديلات ما جعله ملائماً لإقامته رمزاً للحرية الأمريكية التى تبسط نورها على كل قادم لتلك البلاد !

* * *

محاولة نسف البرلمان الإنجليزى

من التقاليد البرلمانية فى إنجلترا أن تطوف بمجلس العموم فرقة من الجند قبل انعقاد أولى جلسات أية دورة، للبحث عما إذا كانت هناك محاولات لنسف المجلس أو تعطيل انعقاده .

بل لقد درج الإنجليز كل عام على الاحتفال بما يسمونه « مؤامرة البارود » أو محاولة نسف البرلمان ، وذلك بعمل تماثيل من القماش أشبه بما يسمى عندنا « خيال المقاتة » يشعلون فيها النار استنكاراً لما كان يحاوله صاحبها « جى فوكس » من العبث بالبرلمان ، يشاركهم فى كل ذلك أطفالهم الذين يطوفون بالمدن والقرى يجمعون البنسات لشراء المعدات، وفى المساء يرتدى الكبار الملابس التنكرية وتطلق الصواريخ وتنشد الأغانى الحماسية ويسود الجميع جو من المرح ، وينتهى الاحتفال بإشعال النيران على قمم التلال والأماكن العالية لحرق تمثال فوكس إظهاراً لشعورهم نحو العمل الشنيع الذى كان يحاوله وتذكرةً لما يجب توفره من التسامح الدينى بين أبناء الوطن الواحد .



البيت المجاور للمبنى القديم للبرلمان البريطانى

والآن ما هى قصة جى فوكس ؟

كان الكاثوليك الرومانيون يلقون أنواعاً شتى من الاضطهاد بسبب عقيدتهم ، فلما تولى جيمس الأول سنة ١٦٠٣ استبشر الكاثوليك الرومانيون لما سمعوه عن ميله للتسامح الدينى ، ولكن ظنونهم خابت إذ أصر على تنفيذ القوانين الجائرة التى عوملوا بها فى عهد سابقيه .

لذلك اعتزم بعضهم التخلص من هذا الحيف باغتيال الملك ، غير أن تلك الفكرة طرحت جانباً لأن أبناءه قد يتبعون مبادئه ، وربما يتغالون فيها فيزيد الخسف والاضطهاد بالقوم . ولو أبيدت الأسرة المالكة كلها فإن البرلمان واللوردات والأعيان الذين كانوا يدينون بالمبادئ نفسها سينصبون ملكاً بروتستنتياًّ بأية طريقة على العرش .

وإذن فالحل الوحيد هو التخلص بضربة واحدة من الملك وإبادة الأسرة المالكة واللوردات وأعضاء مجلس العموم . ولما كان هؤلاء جميعاً يجتمعون عند افتتاح دورة البرلمان فتلك فرصة مواتية .

استعان المتآمرون بجى فوكس للتنفيذ ، واستأجروا بيتاً مجاوراً للبرلمان ، وحفروا فيه نفقاً أوصلهم إلى قبو تحته كان يؤجر بمزايدة عامة لخزن الفحم ، فاستأجره أحدهم ، وكدسوا فيه ٣٦ برميلا ملأى بالبارود وأخفوها تحت حزم من القش وأكوام من الخشب .

يضاف إلى ذلك كله تدابير أخرى اتخذت للقضاء على من سيسعده الحظ بالتغيب يوم الافتتاح .

وظلت المؤامرة سرية نحو عام ونصف عام لا يعلم بها سوى مدبروها ، حتى لم يبق على موعد التنفيذ سوى أيام

قلائل ، إذ أرسل أحد المتآمرين كتاباً ناوله مجهول لخادم اللورد مونت إيجل ، وفيه يحذره من حضور جلسة الافتتاح منوهاً بأن البرلمان سيصاب بكارثة هائلة من يد خفية . وبادر اللورد إلى إبلاغ الحكومة ، ورفع الأمر للملك ، واستقر الرأى بعد بحث الموضوع مليا على تفتيش القبو الموجود تحت البرلمان قبل يوم الافتتاح ، وذلك يوم ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥ ،وفيه وجد جى فوكس فى منتصف الليل ومعه الكبريت والفتيل . فقبض عليه واعترف بأسماء شركائه ، فقبض عليهم بدورهم وأعدم بعضهم وسجن بعضهم ودفع فريق ثالث غرامات مالية جسيمة .

وبذلك انتهت تلك المؤامرة الفريدة فى التاريخ .

* * *

رئيس وزراء يضرب فى الطريق !

كانت إدارة البلاد المصرية فى أيام محمد على باشا تقوم على مبدأين متناقضين ، أولهما : السلطة المطلقة للوالى ، وثانيهما أنه لم يكن ليتخذ قراراً فى أمر ما إلا بعد أن يستمع لآراء المجلس المختص به . وقد دعاه إلى ذلك فقر مصر

من الأكفياء الذين يستطيعون تسيير دفة الأمور ، فكان طوال مدة حكمه حاكماً ومربياً للرجال ، ولم تكن المجالس والدواوين التى أنشأها هيئات إدارية شكلية بل كانت مدارس لتدريب الموظفين الصالحين . على أن السلطة المطلقة التى كانت للوالى لم تحدد إلا فى أواخر إسماعيل ، إذ أن الفترة التى مضت بين وفاة إبراهيم وتولى إسماعيل ، وهى نحو ربع قرن ، خلت من الهيئات الشورية التى أقامها محمد على .

ولما كان إسماعيل — برغم مقدرته النادرة على تفهم أعمال الحكومة وإلمامه بتفاصيل النظم الإدارية ودقائقها — يقدر المظاهر الدستورية فى البلاد ، فقد أنشأ مجلس شورى النواب ، وبدأ الرأى المصرى يتكون حتى صار قوة يحسب حسابها . وقد كان للمشروعات الكبيرة والنفقات الباهظة التى تطلبتها ، والديون التى صحبتها ، أكبر الأثر فى حدوث ارتباكات مالية اتخذها الأوروبيون وسيلة للتدخل فى شئون مصر . وتطورت الحوادث حتى انتهت إلى اقتراح إنشاء وزارة مسئولة تحد من سلطان الخديو الذى قبل العمل بذلك الاقتراح ، فأبرق إلى نوبار يستدعيه لتشكيل أول وزارة .

وتكونت تلك الوزارة فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ ،

وعين فيها وزيران أجنبيان أحدهما إنجليزى للمالية والآخر فرنسى للأشغال . وظن الناس أن الأزمة قد انفرجت ، ولكن اغتصاب الوزارة لسلطة الخديو ووجود أجانب فيها وفشلها فى علاج الحالة أثار الرأى العام .

وكانت أنشط الطوائف إلى الاحتجاج طائفة ضباط الجيش المحالين على الاستيداع ، إذ طالبوا بمتأخر رواتبهم ، واجتمعوا على مقربة من قصر عابدين ، وانتهزوا فرصة مرور نوبار باشا فى عربة فوقفوها وانقضوا عليه وأمسكوا بتلابيبه ، وأخذت أيديهم تتداوله ، وامتدت يد أحدهم إلى رباط رقبته فقطعته ، وطرح بعضهم طربوشه ، وديس فى الوحل ، وتوالت على وجهه الصفعات .

وبينما كانت هذه المأساة تمثل قدم السير ويلسن وزير المالية فوقف المتظاهرون عربته ، ووثب عليه بعضهم وأمسكوا بلحيته ونتفوها وأشبعوه ضرباً ولكماً .

وتوالت الإهانات على الوزيرين بصور شتى حتى أوصلهم المتظاهرون إلى وزارة المالية وهناك أدخلوهما إلى غرفة السير ويلسن حيث صب عليهما وابل من التهديد بإذاقتهما أضعاف ما لقياه إذا لم تصرف المتأخرات .

وأنقذ الخديو إسماعيل الموقف بقدومه بنفسه إلى الوزارة ،

وبعد تأكده من سلامة المعتدى عليهما أمر الضباط بالانصراف بعد أن وعدهم بإجابة طلباتهم؛ ولكنهم تلكأوا فى تنفيذ أمر سموه فاستدعى الجيش وانصرف المتظاهرون بعد إطلاق الرصاص .

وانتهز الخديو الفرصة وأقال الوزارة بعد أن أعلن نوبار عجزه عن ضمان الأمن والنظام .

* * *

جمجمة السلطان ومعاهدة فرساى

فى جميع برلمانات العالم تطرح أحياناً أسئلة — لا للمناقشة والرغبة فى الوصول إلى جواب شاف ، وإنما حباً فى التفكهة والترويح عن الأعضاء المحترمين .

من ذلك جمجمة السلطان مكواوا « Mkwawa » التى كان يسأل بعض النواب الإنجليز حكومتهم عنها مستفسرين عما إذا كانت الحكومة الألمانية قد قامت بتسليمها تنفيذاً للمادة ٢٦٤ من معاهدة فرساى أم لا .

كان السؤال إذا وجه للحكومة أثار عاصفة من الضحك بين النواب يستجمون خلالها ، وأصبح لطرافته سؤالا لاتخلو

منه أية دورة . ونتيجته دائماً وعد من الوزير المسئول للنائب المحترم بالبحث العاجل ، ثم مراسلات دبلوماسية بين الحكومتين البريطانية والألمانية ، ومجموعة جديدة من الأوراق تضاف إلى ملف جمجمة السلطان مكواوا .

وأخيراً أهمل هذا السؤال لا لأن الجمجمة ردت ، بل لأن ألمانيا أخذت تهزأ بمعاهدة فرساى وتخالف بنودها فيما هو أهم من الجمجمة .

هذه الجمجمة — وهى لأحد زنوج أفريقيا — مثل من التوافه التى كانت تحفل بها معاهدات العصور الغابرة . فما سبب ذكرها فى معاهدة تناولت بالتغيير والتبديل نصف خريطة العالم وشغلت أعظم ساسته أشهراً ؟

كانت قبيلة الواهيهى « Wahihi » فى إرنجا « Iringa » التى تبعد نحو ميل عن بحيرة نياسا فى أفريقيا الشرقية الألمانية التى أطلق عليها بعد الحرب العظمى الأولى اسم تنجانيقا ؛ وكان مكواوا آخر سلاطينها المستقلين قد تمكن بالحرب المتواصلة من إخضاع القبائل المجاورة وإدماجها فى قبيلته وزيادة أملاكه واتساع نفوذه .

ولما استعمر الأوربيون أفريقيا فى القرن التاسع عشر كانت أملاك مكواوا تحيط بها أملاك ألمانيا من جميع

الجهات ، فلما بدأوا يوسعون مجال استعمارهم دارت بينهم وبين مكواوا معارك عنيفة استمرت سبع سنين وانتهت بمصرع مكواوا ، ففصل الألمان رأسه وأرسلوها إلى ألمانيا غنيمة وتذكاراً لحرب ضروس قامت فى وجه ألمانيا المستغمرة .

واستتب الأمر للألمان بصفة عامة ، ولكن الروح العدائية بين قبيلة الواهيهى والألمان لم تخمد بل زادت مقاومتها وأصبح مكواوا بطلاً خالداً مقدساً ، غير أن غياب الرأس زاد فى هياج النفوس وأجج نيران الثورات ، لاسيما أنهم طالبوا بالرأس فرفض طلبهم ، ومضت عدة أعوام ،ولكن الواهيهى لم ينسوا رأس زعيمهم ، وظلت الحال كذلك حتى قامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ وانتهت باحتلال الإنجليز تلك البلاد .

ولما علم الواهيهى بانكسار الألمان طالبوا الحكومة البريطانية برد الجمجمة ، وذهب وفد منهم إلى لندن وقابلوا المستر لويد جورج رئيس الوزراء يومئذ ، وشعرت بريطانيا بجدية الطلب وأهميته فى نظر القوم ، ولذا أدرجته فى معاهدة فرساى ، إذ نصت المادة ٢٦٤ من تلك المعاهدة على ما يأتى :

« بعد مضى ستة أشهر من تنفيذ المعاهدة تقدم ألمانيا لحكومة صاحب الجلالة البريطانية جمجمة سلطان مكواوا

التى نقلت من أفريقيا الشرقية الألمانية إلى ألمانيا » .

وانقضت المدة المحددة ولم تتقدم ألمانيا بالجمجمة السلطانية ، ولمست إنجلترا بوادر القلق من جانب الواهيهى الذين نفد صبرهم ، فطالبت ألمانيا بالتنفيذ ، وهذه بحثت فى جميع المتاحف والمعاهد العلمية فلم تجد لتلك الجمجمة أثراً . ولما ألحت إنجلترا فى الطلب بعثت إليها ألمانيا بثلاثة جماجم مع الاعتذار بعدم إمكان إيضاح أيها تخص السلطان مكواوا .

وكان أمام إنجلترا أحد أمور ثلاثة : إما أن تبعث بالجماجم الثلاثة إلى الواهيهى ليختاروا إحداها بدلا من الجمجمة المفقودة وإما أن يختاروا هم جمجمة منها يرسلونها إليهم على أنها الجمجمة المطلوبة أو أن يلتزموا السكوت . وآثر الإنجليز المسلك الأخير ، وظل السلطان بلا رأس حتى الآن .

وأخيراً بعد مئات السنين سيقف المؤرخون حائرين يتساءلون من ذلك الرجل العظيم الذى استحقت جمجمته أن تنفرد بمادة خاصة فى معاهدة فرساى ؟

* * *

المكرونة وقناة السويس

تقترن بعض الحوادث الجسام فى تاريخ العالم بأسباب تافهة ، وقد تدفع هذه الحوادث العالم إلى الخلف أو إلى الأمام حسب استغلال الأمم لها . والتاريخ ملىء بالشواهد المؤيدة لذلك ، فكثير من الحروب الطاحنة نجم عن مسائل تافهة لا تزيد عن المنازعات التى تقوم بين الأفراد . فمن يصدق أن طابع بريد يثير حرباً أو أن عنكبوتاً يحرر شعباً ، إلى غير ذلك . ولو أننا استعرضنا التقدم العلمى لوجدنا أن الشىء الكثير منه كان نتيجة لملاحظة أمور صغيرة — فقانون الجاذبية أدت إليه رؤية نيوتن لتفاحة تسقط من شجرة ، والبخار سببه وعاء ماء كان يغلى أمام جيمس وات إلخ .

وها هى ذى قناة السويس فكرتها قديمة ، وقد اجتازت مراحل جعلت إنشاءها من رابع المستحيلات ، ولكن عاملا تافهاً ذلل الصعوبات التى اعترضت حفرها وعبد الطريق لإنشائها .

كان المسيو ماتيو دى‌لسبس قنصلا عامّاً لفرنسا فى

مصر عقب جلاء الفرنسيين وقبيل تولية محمد على ، وكانت علاقته به طيبة ، ثم نقل منها ، فلما رزق ابنه فرديناند اشتغل الأخير بدوره بالتمثيل السياسى فعين فى بدء الأمر نائباً للقنصل الفرنسى فى الجزائر ، ثم نقل إلى الإسكندرية . وحدث عند قدومه إليها أن حجز فى الحجر الصحى بالميناء وتلقى مجموعة من الكتب أرسلها إليه المسيو ميمو القنصل العام بالإسكندرية ليقطع بقراءتها وقت الفراغ الذى أكره عليه ، وكانت بين هذه الكتب مذكرة عن قناة السويس وضعها رئيس فرقة المهندسين فى حملة نابليون ، وهو المسيو لبير ، فلما قرأها ألهبت خياله وبدأ يدرس هذا الموضوع دراسة مستفيضة .

ولما تقلد أعباء منصبه بمصر فى سنة ١٨٣٢ لقى من لدن عاهلها الكبير كل تقدير بسبب العلاقة القديمة مع والده ، ولما كان يمتاز به من الكياسة ورقة الحاشية ، فأصبح يثق فيه .

كان سعيد يومئذ فى مقتبل شبابه ، ولكنه كان يميل إلى البدانة ، ولذا وضع له والده نظاماً خاصاً يقتضى البساطة فى الطعام ، ورتب له طائفة من الألعاب الرياضية يمارسها خشية السمنة المفرطة . وليس أدل على ذلك ما ورد فى بعض رسائله إليه وهو فى الإسكندرية : « عليك بدوام الانتباه للدرس

والسير بالمشى والحركة لعدم حصول السمن . » وقوله : « سأحضر للإسكندرية لامتحانك ، فإذا ظهر عدم الالتفات للدرس وعدم إزالة ثقل جسمك فرحمة بحالك ! » ، كما حظر عليه « الاجتماع على عادمى الأدب . » وحذره من « معاشرة القبودانات القدماء الذين لا يدرون شيئاً من الآداب » وأوصاه « بالائتلاف بمن لهم معرفة بالأصول الجديدة والاهتمام فى تعلم تلك الأصول منهم » .

وكان فرديناند دى لسبس ، لشخصيته المحبوبة ، فى طليعة من صرح لسعيد بالاختلاط بهم . وفى بيت دى لسبس وجد سعيد كل إجلال واحترام ، فكان لا يكاد يفرغ من تمريناته اليومية حتى يهرع إلى بيت دى لسبس فيجد من الأغذية الدسمة الوفيرة ما يشبعه فيتناول منها خفية ما يشتهى . واكتشف دى لسبس ميلا ظاهراً من سعيد إلى المكرونة فاهتم بهذا الصنف ، وأخذ طباخه يتفنن فى طهيه حتى ازداد ولع سعيد به ، وتوثقت عرى المحبة واشتدت أواصر المودة بين الاثنين حتى نقل دى لسبس إلى خارج مصر ، ولم يبق فى منصبه طويلا إذ اعتزل العمل ، وانقضت بضعة أعوام قضى أغلبها فى دراسة مشروع القناة .

وذات يوم حمل إليه البريد نبأ تولى صديقه القديم ولاية

مصر فكتب إليه ذاكراً أن تقلب الأحداث قد خلفه متعطلا لا عمل له ، فأرسل إليه سعيد ليعجل بالحضور ، ووضع أحد قصوره تحت تصرفه ، ثم دعاه إلى أن يكون بين رجال حاشيته فى زيارة القاهرة .

ولمس دى‌لسبس من سعيد ميلا للفروسية ، وكان يحذقها ، فأبدى فيها مهارة جعلته موضع إعجابه . وانتهز الفرصة وفاتح سعيد فى المشروع ، فأثار هذا جملة اعتراضات رد دى‌لسبس عليها بما أقنعه ، ولم تمض أيام حتى وقع سعيد أول امتياز مدفوعاً بعامل الصداقة والتقدير لدى لسبس ، ولذلك ترددت كلمات « صديق » و « الصداقة » كثيراً فى المكاتبات الصادرة من والى مصر .

وكان لدى سعيد باشا عصوان أهداه دى‌لسبس إحداهما وأهداه الأخرى أميرال إنجليزى . ولشدة تلهف دى لسبس على إنهاء المشروع كان يتحدث أحياناً إلى سعيد وفى حضرته أناس يكرهون مشروع القنال ويحاربونه ، فأشار عليه سعيد بألا يحدثه فى ذلك الموضوع إذا رأى معه عصا الإنجليزى ، وأن يتحدث ما شاء إذا وجد عصاه فى يده .

وظل دى‌لسبس يجاهد ويجالد حتى حظى من سعيد بكل ما تصبو إليه نفسه .

ومن النوادر اللطيفة التي تروى عن ميل سعيد باشا للأطعمة الفاخرة ما رواه إسكندر باشا فهمى : « أن سعيد باشا كثيراً ما سافر إلى السويس بقطار خاص لتناول طعام الأرز بالفراخ والكارى فقد كان بفندق السويس المعد للسائحين طباخ ماهر يحذق طهى هذا اللون من الطعام » .

* * *

أعلام من شعور النساء

إن مدينة القاهرة والأزهر الشريف مدينان بوجودهما للفاطميين الذين حكموا مصر زهاء قرنين تقلبت فيهما الحياة المصرية بين ألوان من البذخ قل أن تجدها فى عصر آخر من عصور التاريخ المصرى ، كما امتدت أملاك مصر من المحيط الأطلنطى غرباً إلى نهر الفرات شرقاً .

غير أن تلك الدولة منيت بفترة استأثر الوزراء فيها بالنفوذ والسلطان وأصبح الخلفاء خلالها مسلوبى السلطة معهم ، بل إن الوزراء كانوا يختارون الخلفاء حسب أهوائهم ، وجاء عصر طفح بالنزاع بين الخليفة والوزير حيناً ، كل يحاول الانفراد بالسلطة ، وبين الوزراء أنفسهم حيناً آخر

يحاولون فرض أنفسهم بالقوة على الخليفة .

ففى عهد الظافر (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ = ١١٤٩ - ١١٥٤م) اشتد النزاع بين وزرائه . بين ابن السلار ومنافسه ابن مصال . وحاول كلاهما الاستنجاد بنور الدين صاحب حلب ودمشق لينصره على منافسه ، ولكن الصليبيين كانوا بالمرصاد يطمعون فى الاستيلاء على مصر ، ولهذا وقف كل من الطرفين (الصليبيون ونور الدين) يترقب أحدهما تقدم الآخر .

غير أن الحرب أسفرت عن قتل ابن مصال ثم مصرع منافسه على يد نصر بن عباس بن أبى الفتوح . وخلا الجو للخليفة الظافر فعين عباساً والد نصر وزيراً .

وبلغ من جرأة عباس هذا أن تآمر هو وابنه على قتل الخليفة الظافر ليتولى الأب الوصاية على طفل الخليفة الذى لم يكن وقتئذ يتجاوز الرابعة من عمره[١] . وكان عباس هذا من الصفاقة بحيث اتهم إخوة الخليفة بالاشتراك فى قتل أخيهم ليحول دون تدخلهم فى شئون الملك ، ولكن حيلته فشلت وعرف الناس أنه القاتل الحقيقى مما أثار استياء الجميع .

ولعب الشعر دوراً هاماً فى إنقاذ الموقف إذ أرسل الجليس[٢]

---

(١) هو الخليفة الفائز الذى مات سنة ٥٥٥ هـ وطلائع لا يزال فى الوزارة .

(٢) هو القاضى أبى المعالى عبد العزيز بن الحباب .

قصيدة إلى طلائع جاء فيها :

تداركَ من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس آذنت بنفاد
وقد كاد أن يطفى تألق نوره على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد

كما أسرعت نساء القصر إلى الاستنجاد بطلائع بن رزيق وإلى الأشمونيين (المنيا) وبعثن إليه بشعورهن ، فأسرع طلائع لنجدتهن متخذاً من شعورهن أعلاماً عقدها إلى أسنة الرماح التى شرعها طليعة جنده ، وسار جيشه ينهب الأرض .

وبفضل تلك الأعلام التى ابتكرها ابن رزيق استطاع أن يلهب حماسة المصريين وأن يستميلهم إلى جانبه فينضموا إلى جيشه ، حتى دخل بهم القاهرة وقبض على ناصية الأمور وأعاد الأمن إلى نصابه ، وتولى الوزارة وتلقب بالملك الصالح .

أما القاتلان فلم يجدا سبيلا سوى الفرار ، فعجل الأب بالهرب إلى الشام ، غير أنه قتل فى طريقه إليها . وقبض على الابن ومثل به أشنع تمثيل ، إذ جدع أنفه وصلمت أذناه ، وانتهى الأمر بصلبه حياً . ولما مات تركت جثته معلقة عدة أشهر ثم أحرقت .

* * *

وزير مصرى يرشح لعرش بلغاريا

عندما ثارت بلغاريا فى القرن الماضى ، سنة ١٨٧٥ ، للتحرر من سلطان تركيا ، قام الأتراك بإخماد أنفاس البلغاريين بكل شدة وقسوة فأتت الجنود التركية غير النظامية (الباشى بوزق) بفظائع تقشعر منها الأبدان وتذرعت بها روسيا للتدخل فى صف البلغار فأعلنت الحرب على تركيا ، وتوغلت فى أرضها حتى وصلت إلى أبواب القسطنطينية فاضطرت تركيا إلى منح بلغاريا الاستقلال الداخلى بعد تعديل حدودها مع خضوعها لسيادة السلطان الاسمية وبشرط دفع جزية سنوية . وبذلك أصبحت دولة واسعة الأرجاء ضُمت إليها أراض من مقدونيا وأراض أخرى تجعلها تطل على بحر إيجة ومساحات من بلاد الروملى الشرقى .

ولكن هذا التكوين الجديد كان فيه ازدياد لنفوذ الروس فى البلقان فتدخل الإنجليز والفرنسيون والنمسيون ، ووقفت ألمانيا ووزيرها بسمارك موقف الوسيط ، وانجلت الأزمة عن إذعان روسيا ، وردت بلغاريا إلى حدودها الأصلية ، وفصل أغلب ما ضم إليها مع الاحتفاظ بالاستقلال الداخلى والجزية .

وبدأت الدول تتفاوض فى تعيين أمير لها ، ولما كان أسم نوبار باشا قد اشتهر يومئذ فى أوربا لسفره برفقة الخديو إسماعيل باشا عند دعوة ملوكها وعظمائها لحفلة افتتاح قناة السويس ، ولاتصاله برؤساء حكوماتها فى كثير من المسائل التى كلفه إسماعيل باشا دراستها ، كالمحاكم المختلطة وغيرها ، لذلك جرى اسمه على ألسنة أعلام أوربا وقتئذ كبسمارك ودزرائيلى ، وجرى فعلا حديث بين نوبار وبين مكاتب التيمس فى باريس أسر فيه المكاتب إليه أنه سمع فى خلال مقابلاته مع عظماء أوربا ما جعله يؤمن بأنه (أى نوبار) موضع تقدير وإجلال ساسة أوربا وأولى الحل والعقد بها ، واقترح عليه ترشيح نفسه لإمارة بلغاريا ، فتظاهر نوبار بالاحتجاج على هذا العرض ، وبعد مناقشة طويلة أذعن للاقتراح .

تطوع المكاتب بجس النبض ، فوجد ممن كاشفهم باقتراحه موافقة إجماعية بما فيهم بسمارك ، غير أن تركيا علمت بالأمر فثار حقد رجالها ، وأوغروا صدر روسيا على نوبار ، فأعلنت عدم موافقتها على ترشيحه .

انتهز بسمارك الفرصة وقدم لعرش بلغاريا أميراً ألمانياً ذا قرابة من إسكندر الثالث قيصر روسيا إذ ذاك ، وهو

الأمير إسكندر بتنبرج « Alexaner of Battenberg » فتولى العرش باتفاق الجميع سنة ١٨٧٩ .

ومن سخريات القدر أن هذا الأمير اتخذ سياسة أغضبت روسيا وأضعفت من نفوذها فى بلغاريا فدبرت مؤامرة لاختطافه، غير أنها بعد قليل أطلقت سراحه ، ولكن الأمير اعتزل العرش سنة ١٨٨٦ خوفاً من اغتيال الروس له ، وحل محله الأمير فردينند الذى اتخذ لقب « ملك » عندما أعلنت بلغاريا استقلالها التام عن تركيا فى سنة ١٩٠٨ ، وظل ملكاً حتى عام ١٩١٨ عندما تنازل لابنه بوريس الذى حكم حتى مات سنة ١٩٤٣ تاركاً العرش للملك سيمون الذى لم يتجاوز السادسة يومئذ ، غير أن الملكية ألغيت فى تلك البلاد عام ١٩٤٦ .

* * *

« معزة » السيدة نفيسة !

فى ذات يوم من أيام عام ١٧٦٠ فوجئ الزائرون لمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها برؤية الشيخ عبد اللطيف ، شيخ خدمها يومئذ ، جالساً بالباب وإلى جواره عنزة .

وتساءل الناس : « ما هذا يا سيدنا الشيخ ؟ » فأجاب : « تلك يا أبنائى عنزة مباركة ! »

فازدادت رغبة الناس فى الإلمام بخبرها ، وسأل أحدهم : « وما دليل بركتها ؟ »

فأمسك الشيخ بذقنه برهة ثم قال : « وقع جماعة من المسلمين أسرى ببلاد الإفرنج فأحضروا تلك العنزة وعزموا على ذبحها فى ليلة يجتمعون فيها ويذكرون الله ويدعونه أن ينجيهم من الأسر متوسلين إليه بالسيدة نفيسة ، فلما علم بذلك كبير الإفرنج زجرهم وسبهم . وفى تلك الليلة رأى هذا الإفرنجى الكبير رؤيا أفزعته ، فلما جاء الصباح أطلق سراحهم بعد أن أوصاهم بعدم ذبح تلك العنزة ، ثم أنزلهم فى مراكب حملتهم إلى مصر ، فلما وصلوا إليها سالمين وهبوا تلك العنزة للسيدة نفيسة » .

وظهرت أمارات الدهشة على المستمعين وقالوا فى صوت واحد : « إنها حقاً عنزة مباركة ! » .

وظل الشيخ يردد تلك الفرية أياماً ، ثم أضاف إليها زعمه أنها (أى العنزة) أظهرت كراماتها لخدم مشهد السيدة نفيسة . فالشيخ عبد الرؤوف المؤذن رآها عند أذان الفجر على المئذنة ، والشيخ جمعه سمعها تتكلم ! ! فازداد إعجاب

الناس ولا سيما بعد أن استوثقوا من الشيخ عبد الرؤوف والشيخ جمعه ، وأخذوا يشيدون بذكرها فى مجتمعاتهم ، وأخذت كراماتها تكبر وتتضخم ، والشيخ عبد اللطيف يضيف إلى أكاذيبه كل يوم شيئاً جديداً ؛ وكان خاتمة مفترياته ادعاؤه أنه سمع السيدة نفيسة رضى الله عنها تتكلم داخل قبرها موصية إياه بها .

وانتشر خبر العنزة وأقبل الناس من كل فج لزيارتها والتبرك بها ، وأمعن الشيخ فى افترائه فادعى أنها لا تأكل إلا اللوز والفستق ، ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر !

فانهالت عليه كميات وافرة من تلك الأصناف ، وتغالى النساء ، ولا سيما نساء الأغنياء ، فى تكريمها فصنعوا لها قلائد وأطواقاً من ذهب ، وشاع خبر العنزة فى بيوت الأعيان والأمراء .

ولما وصل خبر تلك العنزة إلى الأمير عبد الرحمن كتخدا ــ وكيل الباشا الوالى يومئذ ــ استنكر تلك البدعة وأصر على أن يقضى على تلك العنزة ، فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يطلب حضوره مع العنزة إلى قصره ليتبرك بها هو وحريمه .

انتهز الشيخ الفرصة ونظم فى صباح اليوم التالى موكباً

حافلا ، فركب بغلته والعنزة أمامه تحيط بهما البيارق والأعلام والمشايخ ، وتتقدم الجميع الطبول والزمور ، حتى وصل إلى بيت الأمير عبد الرحمن الذى رحب به وأجلسه مع من كان بحضرته من الأمراء والأعيان ، وبعد قليل جاء رسول من من قبل حريم الأمير يطلب العنزة، للتبرك بها ، فابتسم الشيخ وصرح بذهاب العنزة .

كان رسول الحريم فى الواقع هو كبير طهاة الأمير ، فما كاد يتوارى عن الأنظار حتى عرج بالعنزة على المطبخ حيث ذبحها وأعدها للغداء .

ولما حان موعد الغداء مدت الموائد للموجودين ، وجلس الشيخ عبد اللطيف إلى جانب الأمير عبد الرحمن الذى كان يناوله بين آن وآخر قدراً كبيراً من اللحم ويقول له : « كل يا شيخ عبد اللطيف من هذا الرميس السمين . . »

فتظهر أمارات الرضا والارتياح على وجه الشيخ ويقول « والله إنه طيب ومستو وسمين ! » .

ولما فرغ الغداء وشربوا القهوة طلب الشيخ العنزة ، فضحك الأمير ضحكة عالية رددها من بالمجلس وقال : « لقد أكلتها ياشيخ عبد اللطيف ! » .

وبهت الشيخ وانعقد لسانه ، وانتهز الأمير الفرصة

فانهال عليه توبيخاً وتقريعاً ، وأمر أن يوضع جلد العنزة على عمامته ، وأن يعود إلى المشهد على هذه الصورة . فركب الشيخ عبد اللطيف بغلته وجلد العنزة يتوج رأسه ، وسار تتقدمه الطبول والزمور وتحيط به البيارق والأعلام ! . . .

وبعد وصول الموكب اختفى الشيخ عبد اللطيف ولم يعرف له أثر .

* * *

يتوج فى بطن أمه

بديهى أن شيئاً من هذا القبيل لا يمكن حدوثه ، ولكنه حدث ! وذلك أنه عقب وفاة الشاه هرمز الثانى ملك فارس سنة ٣٠٩ ميلادية انقض أمراء البلاد على ورثة العرش من أسرته فقتلوا هذا وسملوا عينى ذاك وفر الباقون بعد قليل لائذين بالرومان .

عندئذ أصبح العرش دون وارث ، فثارت أطماع الأمراء وتعددت المعسكرات وأصبحت الحرب الأهلية فى حاجة إلى الشرارة الأولى حتى تشتعل نارها ، غير أن تدخل الماجى (رجال الدين) حال دون إطلاق السهم الأول وحقن

الدماء . وأخلد الجميع للسلام وبدأوا يفكرون فى إعادة أحد ورثة العرش الفارين ، ولكن الخوف من انتقامهم دفع الأمراء إلى معارضة هذا الرأى .

وبينما القوم فى حيرتهم إذ بنبأ سار يصل إلى أسماعهم ، وذلك إن إحدى زوجات الشاه الراحل كانت فى حالة حمل ، وأنها ينتظر أن تضع حملها بعد بضعة أشهر ؛ فماذا لو انتظروا قليلا حتى يتبينوا جنس المولود الجديد . وعرض الأمر على رجال الماجى لإبداء رأيهم فأيدوا النبأ ، بل زادوا عليه أن المولود سيكون ذكراً . فزال بذلك شبح الحرب الداخلية .

واقترح بعضهم تتويج ملك المستقبل ، فرحب الشعب الفارسى بالفكرة ، وأعد الحفل دون إبطاء ، وفيه جلست الزوجة الحامل على كرسى ملكى فخم ، وبين تهليل الشعب ودعائه وضع رئيس الماجى التاج على بطن الزوجة وتلا الأدعية والصلوات المناسبة للمقام . ولما تم كل ذلك هتفت جموع الحاضرين معلنة ولاءها وخضوعها للملك المنتظر .

وكان تكهن الماجى صحيحاً ، فلم تمض أشهر حتى ولد الشاه سابور الثانى ، وساد الاعتقاد بين عامة الشعب أن سابور ملك بعثته العناية الإلهية لينقذ الفرس من الحرب

الداخلية ، ولذلك حاطه الشعب بحبه ، وظل طوال حكمه شديد الإخلاص والطاعة له حتى إنه استطاع بفضل ولاء شعبه أن يرد عن فارس غارات كثيرة ، وأن يبطش بأعدائه الذين كان يربط أسراهم كتفاً إلى كتف بحبال وثيقة يدخلها فى أجسامهم ويجرهم إلى التعذيب جماعات ، ولهذا سماه العرب فى تاريخهم بذى الأكتاف . واشتهر فى كتاباتهم بهذا اللقب .

* * *

ملكة تتوج بعد موتها

عندما أصبحت البرتغال ميداناً للحرب بين إنجلترا ونابليون (١٨٠٨ – ١٨١٤) رحل ملكها جون السادس إلى البرازيل التى كانت مستعمرة برتغالية فى ذلك الحين حيث توج ملكاً ، وقام الإنجليز بتعيين نائب له تحت إرشادهم . وكان ولى عهده دوم بدرو « Dom Pedro » قد بلغ سن الرشد وعن للملك أن يزوجه فتاة من الأشراف اختارها له ، ولكن الابن تعلق بحب فتاة تدعى إينز دى كاسترو وأصر على الزواج منها ، فلما فاتح أباه بحبه عنفه

وأنكر عليه تلك الزيجة ، ولكن الفتى لم يأبه لكلام والده وازداد حبه وتعلقه بتلك الفتاة وأصبح لا هم له إلا التغنى بجمالها آناء الليل وأطراف النهار مردداً اسمها فى كل مجلس .

ورأى الملك نفسه مرغماً على قتل تلك الفتاة حتى يخلو الجو فيتزوج ولى عهده بمن اختارها له ، ويتخلص ممن اعتبرها دخيلة على الأسرة المالكة .

ولكن الملكة تدخلت فى الأمر ، فأصاخ الملك لرغبتها ووافق مرغماً على هذا الزواج ، وزفت الفتاة لولى العهد . ولم يكد شهر العسل ينقضى حتى ذاع فى البلاد نبأ وفاتها فووريت التراب مأسوفاً على شبابها مبكياً على جمالها من زوجها الذى أدرك بعد بحث وتحقيق أن والده قد أوعز بدس السم لها حتى يخلى الطريق للفتاة التى اختارها لابنه .

وانقضت عدة أشهر أعاد الملك فيها فكرة الزواج على ولده فجابهه بالرفض القاطع .

ولما استقرت الأمور بعد هزيمة نابليون عاد الملك جون إلى عرش البرتغال بعد أن ترك ابنه ملكاً على البرازيل .

وبعد ثلاثة أعوام من وفاة إينز مات الملك جون واعتلى العرش ابنه الأرمل باسم بدرو الأول ، ولكنه لم ينتقل إلى البرتغال بل آثر حكم البرازيل .

ولم ينس الملك الفاجعة التى منى بها فى زوجته والشرف الذى كان سينالها لو أنها بقيت على قيد الحياة ، فكان أول ما فعله أن أخرج جثمانها من اللحد ، وكسا هيكلها بالحلل الملكية ، وتوج رأسها بالتاج الملكى ، وأجلسها على عرش فخم ، وقد قبضت بعظام إحدى يديها على صولجان الملك وبالأخرى على الكرة ، وجلس إلى جوارها وأمر القسس بتلاوة المراسيم الدينية للتتويج .

ومرت وفود الشعب البرازيلى أمامهما فى خشوع ورهبة لتؤدى فروض الطاعة والاحترام ، كما ركع الكبراء والوزراء عند قدميهما علامة الولاء والإخلاص كما لو كانت الملكة حية !

* * *

أربعة أباطرة لروما فى عام واحد

عندما تربع نيرون ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، على عرش روما عام ٥٤ ميلادية تفاءل الرومانيون للمظاهر الطيبة التى استهل بها حكمه والنوايا الحسنة التى كانت ماثلة فى آرائه وأعماله وتصرفاته ، حتى إنه — وقد اضطر

يوماً إلى توقيع حكم بالإعدام على أحد رعاياه — صرخ قائلا : « ليتنى ما تعلمت الكتابة ! »

غير أن حوادث لاحت فى أفق الدولة شاءت الظروف أن تمتحن بوساطتها نيرون ، إذ انقض أعداء روما على أطرافها ينتقصون منها . وتشاء الأقدار أن ينتصر نيرون وأن ينصرف بعض الشىء إلى إصلاح الدولة وتجديد شبابها ، فمضى ينظم إدارتها وينعش ماليتها ، ويسهر على خير روما ومستعمراتها ، ويقوى السلم فى الداخل والخارج . ونجح نجاحاً غير منتظر أحدث فى مسلكه الشخصى رد فعل هائل ، فقد خيل لكبريائه أن من حقه — وقد استتب له الأمر وتحققت على يديه الأمانى — أن يطلق لنفسه العنان ويتمتع بالحياة .

وهكذا تحرر من القيود التى أحاط بها نفسه فى بدء الأمر ، وأخذ يستسلم لغرائزه ويتمرغ فى حمأة الرذائل . فتحرر من كل قيد واستسلم للشهوات ولم يقف عند حد خلقى فى نزواته فقتل أمه وأمعن فى الظلم وسفك الدماء ، وبدأ العالم الرومانى يحتضر ، وأخذت المسيحية تتغلغل فى أوساط العامة ، واعتنقها بعض الكبراء سراً ، وبدأ المسيحيون يسخرون مما انحدرت إليه روما ، فبدأت سلسلة

من الاضطهادات الموجهة للمسيحية ، حتى إنه عندما علم بنبأ شبوب النار فى أحد أحياء روما أمر بزيادة لهيبها حتى تلتهم روما بأسرها ، ونسب هذا الجرم الفظيع للمسيحيين وأمعن فى اضطهادهم ، وظل يضيف كل يوم جرائم فوق جرائمه حتى فكر بعضهم فى التخلص منه وتحرير الإمبراطورية من طغيانه ، ولكن المؤامرة فشلت وتوالت حوادث الاعتقال والتنكيل والإعدام .

وسرعان ما بدأت الأنباء تتوالى بأن الجيوش الرومانية المرابطة فى بلاد الغال (فرنسا) شقت عصا الطاعة ونادت جهرة بسقوط نيرون ، ثم تلتها جيوش إسبانيا ونادت بقائدها إمبراطوراً ، ثم أعقبتها جيوش جرمانيا منادية بقائدها إمبراطوراً أيضاً ، كما أن جيش أفريقيا انتقض هو الآخر وأعلن أن قائده هو الجدير بمنصب القيصر .

وبدأ «جالبا» « Galba » ، قائد القوات المرابطة بفرنسا ، فى الزحف على روما ، وانضم إليه الأسطول ، وحاول نيرون الفرار ، ولكن مجلس الشيوخ أرسل كتيبة من الفرسان لتعقبه ، وقضى بأن يشد عنقه إلى ظهر جواد وأن يضرب بالسياط حتى يموت .

وأخيراً قتله أحد أتباعه وخلص العالم من آثامه سنة

٦٨ م ، ونودى بجالبا إمبراطوراً ، ولكن الفرق المقيمة بألمانيا نادت بقائدها فيتيليس « Vitellius » إمبراطوراً ، غير أن جالبا سبق فى الحضور إلى روما ، ووافق مجلس الشيوخ على تنصيبه . وأعلن بيزو ليسينيانس «Piso Licinianus» خلفاً له ، فأثار ذلك قائداً آخر هو أوتو «Otho» الذى تمكن من قتل جالبا ولسينيانس ونصب نفسه إمبراطوراً بموافقة مجلس الشيوخ أيضاً .

ولم يتمتع بالحكم إلا قليلا إذ أن قوات فيتيليس وصلت إلى روما ، فلم يجد « أوتو » بداً من الانتحار ولاسيما أن مجلس الشيوخ أعلن تأييده لتعيين فيتيليس إمبراطوراً .

ولكن قائد القوات الرومانية فى مصر انتهز تلك الفوضى وأعلن تنصيب قائد إحدى الفرق المعسكرة فى آسيا الصغرى إمبراطوراً باسم فسبيزيان « Vespesian » . وتكاتف قواد فرق الشرق على معاونته ، وسارت جموع من قواتهم إلى روما ، ودارت رحى الحرب من جديد ، وانتهت بذبح فيتيليس ، وأعلن مجلس الشيوخ تعيين فسبيزيان الذى لاقى صعوبات شديدة فى توطيد الأمور وإقرار النظام بعد تلك الفوضى الشاملة والاضطراب العظيم .

وقد تكررت هذه المأساة . مأساة تولى أربعة أباطرة

على عرش روما مرة أخرى فى عام ٢٣٨ م ، إذ أنه عندما قتل الإمبراطور مكسيموس خلفه على العرش الأباطرة جورديان الأول « Gordian » ثم بابينيوس « Pupienus » ثم جورديان الثالث وقد قتلوا جميعاً بيد الحرس البريتورى فى ظروف مشابهة لما حدث لأسلافهم .

* * *

إمبراطورية فى المزاد

لروما تاريخ خالد ومجد عتيد ، فقد سادت العالم فترة من الزمن شملت فيه أملاكها جميع الدول المشرفة على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، يضاف إلى ذلك إنجلترا وأرمنيا وبلاد العراق ، مكونة بذلك أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ ، فلم تبلغ مساحتها ولا مثل نفوذها أية إمبراطورية أخرى حتى الإمبراطورية البريطانية التى لا تغرب الشمس عن مكان فيها إلا لتشرق فى مكان سواه !

وللاحتفاظ بتلك الأملاك الواسعة ترك الرومان فى كل مستعمراتهم حاميات .

لم يكن أباطرة روما من الأخيار العادلين بل كان أغلبهم

من المستبدين الظالمين ، غير أن هؤلاء وأولئك اعتمدوا فى ارتقائهم العرش على قوة من الجند هى الحرس البريتورى[١] وبعد أن كان هؤلاء الجنود تحت إمرة القياصرة يصرفونهم كما يشاءون أصبح هؤلاء الجنود هم الذين يولونهم ويسندون عروشهم ويقيلونهم بل يقتلونهم إذا شاءوا . لذلك عرف هؤلاء الأباطرة باسم (أباطرة القشلاق) ويكفى أن نذكر أنه فى أواخر القرن الثانى وخلال القرن الثالث الميلاديين تربع على العرش الرومانى خمسة وعشرون عاهلا اغتيلوا جميعاً عدا أربعة . ولم يزد حكم برتيناكس « Pertinax » أول تلك الطائفة من الأباطرة عن ثلاثة أشهر من عام ١٩٢ حاول خلالها نشر النظام ووضع حد لفساد الحكم وتدخل الجند والضرب على أيدى الطغاة ، ولكنه فشل وكان مصيره القتل بيد من أيدوه .

وأعلن الجند البريتورى بعد التخلص منه ، تلافياً لتنازع القواد على من يرث تلك الإمبراطورية ، أنهم على استعداد لبيع الإمبراطورية لمن يدفع أغلى ثمن ، وعقدت جلسة للمزايدة فى معسكرهم يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٣ فتقدم اثنان للشراء : سالبيسيانس « Sulpicianus » وديديس

---

(١) Pretorian Guarda هو الحرس الخاص بالإمبراطور .

« Didus » ولما كان أولهما صهراً للإمبراطور المقتول وثروته كلها وعود اختير الثانى لأنه كان عضواً بمجلس الشيوخ فضلا عن سخائه فى رشوة القواد وتعهده بدفع ٢٠٠ جنيه لكل جندى من جنود الحرس البالغ عددهم اثنى عشر ألف جندى ، ولذلك رسا عليه المزاد بمبلغ يعادل ١٢ مليون دولار .

وترامى النبأ إلى الحاميات الرومانية فى الخارج فاستاء قوادها من ذلك العمل المزرى ، بل تمادى بعضهم فى إظهار استيائه إلى حد المناداة بقائدهم إمبراطوراً ، فأصبح هناك ثلاثة أباطرة . إمبراطور الحامية المرابضة على نهر الفرات ، وثان لحامية الرين ، وثالث لحامية بريطانيا .

وكان قائد الحامية الأخيرة سبتيمس « Septimus Severus » رجلا حازماً أدرك خطورة موقفه ووجود منافسين له ، فعجل بالسير نحو روما ليكون سيد الموقف من البداية . ولما وصلت جيوشه إلى روما لم يقاومها الجند البريتورى مقاومة جدية ، بل لم يكلفوا أنفسهم عناء الدفاع عن الإمبراطور الذى باعوه العرش وقبضوا منه الثمن ، بل تركوه يقع أسيراً فى يد الإمبراطور الجديد الذى قتله بعد أن حكم خمسة وستين يوماً لم يظهر فيها أية مؤهلات حربية أو إدارية ، بل إن

الشعب نفسه كان يناديه كلما ظهر : « ها هوذا سارق الإمبراطورية ! » .

وكان أول ماعمله سبتيمس أن كون حرساً جديداً من رجال الحاميات ليحل محل الحرس البريتورى الذى وصم الإمبراطورية وصمة لطخت سمعتها على مر الأيام ، كما حل فرقه ونفى أفرادها خارج روما[1] ، وعندما وصل إلى روما منافساه فى العرش كان مركزه قد تدعم وأصبح من السهل عليه أن يسحقهما وأن يوطد عرشه .

---

(١) هذا الحرس لم يلغ نهائيا إلا فى عهد الإمبراطور قسطنطين الأول سنة ٣١٢ لما عاد إلى طغيانه وزاد تدخله فى أمور الدولة بشكل مزعج .

مكتبة الأطفـــال

للأستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة تحتوى على أكثر من أربعين كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه فى جميع البلاد العربية .

دار المعارف بمصر

ظهرت حديثاً فى طبعة جديدة أنيقة

القصص المدرسية

تأليف الأساتذة

محمد سعيد العريان وأمين دويدار ومحمود زهران

الحظ الجميل	أصحاب الكهف
النهر الذهبى	الزعيم الصغير
الطيور البيضاء	الصياد التائه
ساقية العفاريت	مدمس اكسفورد
عروس الببغاء	أميرة الواحة
سميحة ومديحة	تاجر دمشق
معمل الذهب	

ثمن القصة ٥ قروش

باقى كتب هذه المجموعة تحت الطبع

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

الكتاب

المجلة الشهرية التى تساعدك على
التزود من الثقافتين العربية والغربية

تصدر عن دار المعارف بمصر
رئيس التحرير : عادل الغضبان

ثمن النسخة ٦ قروش

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـــة والثقـــافة وسمو النفس .

الكتب التى ظهرت :

١ عمرون شاه — تأليف
٢ مملكة السحر — للكاتب الفرنسى شارل بيرو
٣ كريم الدين البغدادى تأليف
٤ آلة الزمان — عن الكاتب الإنجليزى ه.ج.ويلز
٥ الأمير والفقير — عن الكاتب الأمريكى مارك توين
٦ كتاب الأدغال — للكاتب الإنجليزى رديارد كبلنج

ثمن الكتاب ١٠ قروش

٧ بينوكيو — عن الكاتب الإيطالى شارل كولودى
١٥ قرشاً

تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

روضة الطفل



١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء
٧ انتصار فيروزة
٨ حسن والذئب

أول مجموعة من نوعها باللغة العربية يجد الطفل فيها قصصاً مفيدة مزينة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان الجميلة

تصدرها
دار المعارف بمصر

بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب

دار المعارف

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ من مختلف مراحل حياته ومتباين درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه فى تكوين مكتبة عربية فى منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية .

المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع مسبيرو تليفون ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة تليفون ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على تليفون ٢٣٥٨٨
س. ت. ٥٢١٢١

١٩٥٠/٢٩٧٠

فهرس المحتويات

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.
- السلسلة الشهرية الوحيدة التى تعمل منذ أكثر من سبع سنوات على جعل الثقافة فى متناول الجميع.
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة فى كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.
- تصدرها دار المعارف بمصر فى طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملاً فى فلسطين وشرق الأردن — ٦٠ غرشاً فى لبنان
٦٠ فلساً فى العراق — ٦٠ غرشاً فى سوريا